سورة الكافرون

مكية وهي ست آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند ابن مسعود، وهو قول الحسن وعكرمة. أما ابن عباس وقتادة والضحاك وابن الزبير فيرون أنها مدنية (فتح البيان). وعن ابن عمر أنه رأى الرسول ﷺ ٢٤ مرة يقرأ هذه السورة في الفجر والمغرب. (مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمر)

وعندي أن العدد ٢٤ ليس مقصودا بذاته، إنما يراد به الكثرة. ويتضح من هذا الحديث أن الرسول ﷺ إذ كان يتلو في الفجر طوال السور بكثرة، فكان أحيانًا يقرأ قصار السور مثل "الكافرون" و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أيضا.

وعن أبيِّ بن كعب أن الرسول ﷺ كان يقرأ عادة في صلاة الوتر: ﴿سبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعْلى﴾ والكافرون و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (المستدرك للحاكم، كتاب التفسير)

وعن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِل ثُلث القرآن، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ رُبْعَه، وقد قرَأ هاتين السورتين في صلاة الفجر مرات عديدة (الترمذي، أبواب فضائل القرآن).

هذه الرواية قد وردت في المعجم الأوسط للطبراني.

وليس المراد من هذا الحديث أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تساوي ثُلث القرآن و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تساوي رُبْعَه حرفيًا، إذ لو كان الأمر كذلك فما كان هناك حاجة لإنزال سائر القرآن. إنما المراد أن الحقائق في أصلها مختصرة جدا، فمثلا: إن خلاصة الدين بحسب القرآن والسنة هي حُبُّ الله والشفقةُ على العباد، فلو قال أحد إن الشفقة على العباد هي نصف الدين، فهذا لا يعني أنه لم تعُدْ هناك حاجة إلى ما تبقى من الدين، وإذا قال أحد إن حُبَّ الله أمرٌ بالغ الأهمية، فلا يعني ذلك ألا حاجة لما تبقى من الدين. إذن، إنما المراد من قول الرسول ﷺ هذا أنّ مفاهيم

هاتين السورتين بالغة الأهمية، وإذا تدبّرَها الإنسان تدبُّرًا سليمًا حُلَّت له كثير من مسائل الدين التي صعب عليه فهمُها. فعلى سبيل المثال، إن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تركِّز على التوحيد، والحق أن وحدانية الله روح الدين، وإذا فهِمها أحدٌ اتضحت له الكثير من قضايا الدين بجلاء، وهدتْه فطرتُه السليمة إلى الكثير من تفاصيل الدين. أما سورة الكافرون فتركّز على الاستقامة على الدين، وأيّ شكّ في أن الاستقامة على الحق ليست أقلَّ أهمية من تصديقه. فإذا كان إنكار الحق يؤدي إلى مفاسد معينة، فإن عدم الاستقامة عليه يؤدي إلى مفاسد مثلها أو أكثر. لقد جاء الإسلام، فاعتنقه الناس، فكشف الله تعالى قوة الإسلام وشوكته فانتشر إلى أكناف العالم، ورغم أنه لم يؤمن به حتى نصف سكان العالم، إلا أنه صار غالبا على العالم كله، ولم يكن هناك في الظاهر ما يُضعفه، ولكنه تقلَّص وانكمش حتى ارتفع إلى السماء بحسب التعبير النبوي (البخاري، كتاب التفسير). لماذا حدث ذلك؟ لم يحدث هذا لأن المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية هزمت الإسلام، كلا، إنما لأن المسلمين غفلوا عن الاستقامة والتمسك بالإسلام، وألقوه كما تُلقى الثياب البالية. لو أنهم استقاموا عليه لكان العالم كله مسلما اليوم، وكانوا غالبين مقتدرين في العالم بدلاً من أن يَؤولوا إلى ما نراهم فيه اليوم من ضعف وقلة حيلة. ولو أن رسول الله ﷺ قد اعتبر سورة الكافرون نصف القرآن لهذا السبب نفسه فقد صدق، والحق أنه لو اعتبرها أكثر أهمية من ذلك ما جانبَ الحقَّ والصدق أبدًا.

وعن نوفل بن معاوية الأشجعي قال: يا رسول الله، علِّمْني ما أقرأُه قبل النوم، فقال رَسُولُ اللَّهُ ﷺ: اقْرَأْ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِن الشِّرْكِ (أبو داود والنسائي والترمذي وأحمد). هذا الحديث يدعم الاستدلال الذي قمت به آنفا، ذلك أن عزيمة المؤمن بأنه لن يتخلى عن الحق ولن يرضى بالباطل مهما حدث، تُولِّدُ فيه قوة مذهلة، أما إذا أبى الناس التخلّي عن أفكارهم السابقة أو أفكار آبائهم أو مشايخهم، فأيُّ شبهة في هلاكهم ودمارهم؟

كما أن هذا الحديث يؤكد أن الأفكار التي ينام بها المرء، تترسخ في ذهنه بقوة. والحق أن الإسلام هو وحده الذي كشف هذا الأمر، واللافت أن المسلمين هم الذين قد نسوا هذا الأمر. إن عقل الإنسان لا يفكّر في شيء حين يقع على مسامعه فحسب، بل لا يبرح عقله يفكّر فيه وقت فراغه، ومن أجل ذلك أمَرنا الشرع بالأذان في أذن الوليد اليمنى والإقامةِ في أذنه اليسرى فور ولادته. وكذلك قد أمَرنا الرسول ﷺ حين الفراغ من مشاغل الدنيا والإيواء إلى الفراش بنفْض أفكارنا الدنيوية وقراءةِ بعض الأدعية متدبرين فيها قبل النوم. والحكمة في ذلك أن عقل المرء يظل فارغًا طوال الليل فيستعيد أحداث النهار، ولذلك يحلم في منامه أحيانًا بما وقع معه من أحداث، أو اختلج في قلبه من أفكار، وما رأى من مشاهد خلال النهار، ولو أنه نامَ مردّدًا بعض الأدعية الرائعة والتسبيح والتحميد ومتدبرًا فيها، فلا بد أن تحول الأدعية والأذكار في عقله الفارغ خلال نومه، وبالتالي ترتسم وتترسخ في عقله بقوة، ولن تنمحي منه بسهولة، فيزداد إيمانا واستقامة.

وقد ورد في معجم الطبراني ومسند أبي يعلى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أدلّكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله؟ تقرأون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند منامكم.

وهذا الحديث أيضا يدعم استنتاجي السابق.

وقد أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم أن مَن لقي اللهَ تعالى بسورتين لم يحاسبه، وهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. (الدر المنثور: سورة الكافرون، وكنز العمال: ج١، الكافرون)

هذا الحديث إنما يعني أن الذي يؤمن بالتوحيد متمسكًا بما في هاتين السورتين من رسالة بقوة وثبات واستقامة، سيمرّ من دون حساب.

وقد نقل الطبراني والبزار وابن مردويه عن الخباب أنه كلما أَوَى رسول الله ﷺ إلى فراشه قرأ سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولم يحدث قط أنه أوى إلى فراشه بدون قراءتها كلها (فتح البيان).

وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف (مسلم، كتاب الحج).

وفي مسند أحمد، عن ابن عمر قال: "رمقتُ النبيَّ ﷺ شهرًا، فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾.

أما عن فضائل هذه السورة فقد روى جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله ﷺ: أتحبّ يا جبير إذا خرجتَ سفرًا، أن تكون مِن أمثَلِ أصحابك هيئةً، وأكثرِهم زادًا؟ فقلت: نعم، بأبي أنت وأمي. قال: فاقرأْ هذه السورَ الخمس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وافتتحْ كلَّ سورة ببسم الله الرحمن الرحيم..... قال جبير: وكنتُ غنيًا كثيرَ المال، فكنت أَخرُج مع مَن شاء الله أن أخرج معهم في سفر، فأكون أَبَذَّهم هيئةً، وأقلَّهم زادًا، فما زلتُ -منذُ عَلَّمَنيهنّ رسولُ الله ﷺ وقرأتُ بهن- أكونُ مِن أحسنِهم هيئةً وأكثرِهم زادًا. (مسند أبي يعلى، حديث جبير)

الملاحظ هنا أن الرسول ﷺ قال له أن يبدأ كل سورة بالبسملة، وهذا دليل على أن البسملة جزء من كل سورة.

لا شك أن في قراءة سور القرآن بركات، فمَن قرأ القرآن أصبح محبوبا عند الله تعالى ومهبطًا لفضله، غير أن هناك أمرًا آخر في هذه السور وهي أنها تُقدِّم مقارنةً مع الأديان الأخرى، وتحثّنا على التخلص من كل ضعف وتقصير، وعلى الاستقامة عند الشدائد، والتمسكِ بالتوحيد، والامتناعِ عن الخصومة والشجار. وعندما يتدبر الإنسان في هذه المعاني مرةً تلو مرة، يبقى متحليًّا بهذه الخصال الحميدة وتنكشف عليه أهميتها وقيمتها أكثر، وبالتالي يزداد عزًّا في أعين الخصوم، ويكون سببًا في اتحاد الأمة في أعين الأحباب. إن الخصوم إذا رأوا أحدًا قد رُعب منهم، ارتفعت معنوياتهم واحتقروا قومه؛ فعندما زرت إنجلترا في عام ١٩٢٤ لدراسةِ فُرَصِ نشر دعوة الإسلام، كنتُ ألبس نفس الثياب التي ألبسها في الهند، والأوروبيون لا يحتقرون لباسنا هذا فحسب، بل يعتبرونه لباس نوم، لكونه فضفاضًا مثل لباس

نومهم، وبتعبير آخر إنهم يعتبروننا عراةً في هذا اللباس، لأنهم لا يخرجون بلباس نومهم أمام الآخرين. فجاءني داعيتنا المسؤول يومًا وقال لي في قلق: إنّ لباسكم هذا يسبّب عثرةً للكثيرين، فإذا كان حضرتك لا تستطيع أن تلبس بنطلونًا فيمكنك أن تلبس سروالاً دافئًا كالذي يلبسه سكان مدينة "عليكره" بالهند، وتُدخل القميص فيه. فقلت: لماذا أفعل هكذا، وكيف يحق لهم الاعتراض على لباسي القومي؟ قال: الأمرُ لا علاقة له بالحق وعدمه، إنما أقول أن هذا يعطي انطباعا سيئا ويتسبب في احتقار قومنا. وفي اليوم نفسه جاء لزيارتي عميدُ كلية الاستشراق (School of Oriental College) السير داني سن راس (SIR DANY SUNROSS) في رفقة بعض كبار القوم، فناقشتُ معهم القضية نفسها وقلت: هل تحتقرون لباسنا هذا؟ قالوا: لا، لا، كيف يمكن أن نحتقره؟ إنه لباس رائع. فعرفتُ أنهم يخفون ما في قلوبهم ولا يقولون ذلك إلا بسبب المجاملة التي يشتهر بها الأوروبيون، فأصررتُ عليهم وقلت: إنكم أصدقائي، فأَخْبِروني بصدقٍ رأي شعبكم في هذا اللباس. فقالوا: الحق أن أهل بلادنا يستاءون ممن يظهر أمامهم بهذا اللباس ويحتقرونه. وكان السير داني سن راس (SIR DANY SUN ROSS) قد عمل أستاذا في جامعة "عليكرة" وجامعة في كالكوتا أيضا، فقلت له: لقد عشتَ في بلادنا، فهل كنت تلبس السروال أو الإزار مثلنا؟ قال: لا. قلتُ: إذا ذهبتَ إلى بلادنا وعشتَ هناك بلباس بلدك فلا حرج في ذلك، ولكن لو جئنا إلى بلادكم بلباسنا فتستاءون منه! ألا يعني ذلك أنكم تعتبرون قومكم أفضل من الآخرين وتحتقرون قومنا، فتطالبوننا بما لن تفعلوه لو طُلب منكم في الظروف نفسها؟ وما دام الأمر هكذا فكيف تقبَل الغيرة القومية للهندي أن يغيّر لباسه إرضاءً لكم؟ ثم قلت له: أخبرْني بصدق، ألا تفرحون حين يلبس هنديٌّ المعطف والبنطلون قائلين بأنه قد اعترف بتفوقكم القومي، ولذلك اختار لباسكم؟ فقال: هذه الفكرة تكون في عقلهم الباطني حتمًا، سواء فكَّروا هكذا تماما أم لا. قلتُ: هذا يعني أنكم تغضبون على من يلبس لباس قومه في بلادكم وترون في ذلك إساءة إليكم، ولكن تفكّرون في عقلكم الباطن أيضا أن هذا الشخص لم يرتعبْ منكم ولا من

حضارتكم. فقال في شيء من الخجل: هذا صحيح إلى حدّ ما. فقلت له: عند خروجي من الهند كنت قد أخذت معي بسبب الجوّ البارد هنا بعض السراويل التي تشبه البنطلون والتي تشبه ما يلبسه أهل "عليكره" عندنا -إذ هو يبدو كالبنطلون ولكن يكون فيه تِكَّة لشدِّه بدل الحزام- ولكني لن ألبسها الآن أبدًا بل سأرجع بها معي، لأني لا أعتبر أهلَ بلادي أقلَّ منكم درجةً بسبب حُكْمِكم على الهند، ولا أعتبر بلادي أقلَّ حضارة من حضارتكم، ولستُ مستعدًّا لتقليد الحضارة الإنجليزية.

فقول الرسول ﷺ لجبير بأنك إذا قرأت هذه السور أصبحتَ أمثَلَ هيئةً وأكثرَ هيبةً، إنما هو إشارة إلى أن هذه السور تقدّم التعاليم الإسلامية الأساسية، وتحض على الاستقامة بها رغم المعارضة، ومن الطبيعي أن الذي يتمسك بتعاليمه وأفكاره بشجاعة في الظروف الصعبة، فهو يرسي بين الناس عِزَّه وعِزَّ أُمته. أما قول النبي ﷺ لجبير بأن هذا سيجعلك أكثرهم زادًا، ففيه إشارة إلى أن الذي يرفض الخضوع أمام الآخرين، لن يفكّر أن يأتي الآخرون لتفقُّد حاله ومساعدته، وعندما يحرّر فكره من مساعدة الآخرين فلا بد أن يسعى جاهدًا لكسب الرزق الحلال المحترم.

ليت شبابنا يرددون هذه السور ويتدبرونها عند السفر إلى البلاد الغربية أو خلال أسفارهم في تلك البلاد، فهذا يحميهم من التأثر من قوى الكُفر دائمًا، فلن ينتابهم إحساس بالضعف وهوان قومهم ودونيّتهم.

الحق أن المرء لا يتأثر بالظروف المحيطة به في الظاهر بقدر ما يتأثر من عقليته المنهزمة. إن الأوضاع السيّئة يمكن تغييرها بكل سهولة، أما العقلية المنهزمة فتغييرها صعبٌ جدا. إذ يوجد في آسيا رغم تدهور معيشتها مئات الآلاف من أصحاب الملايين والمليارات، ولكن قليل منهم الذين ليس لديه عقلية منهزمة. إننا نحن الآسيويين قد كسبنا الأموال رغم العراقيل الشديدة من قِبل الأوروبيين، ولكن لم نستطع حماية عقليتنا من هجماتهم، وهذه السور تحثّنا على إصلاح هذه العقلية المنهزمة، وتمدّنا بما يساعدنا على هذا الإصلاح.

قال الأصمعي بأنه في زمن الصحابة والتابعين كان يقال لـِ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المُقشقِشتان، أي أنهما تُبرِّئان من النفاق، وقال أبو عبيدة: كما يقشقِش الهناءُ● الجرَبَ فيبرئه. (القرطبي)

زمن نزولها:

يرى المستشرق "نولدكه" أن هذه السورة نزلت في مكة في أواخر الفترة الأولى من الدعوة.. أي في حوالي السنة الرابعة تقريبا، إذ صار محمدا (ﷺ) عندئذ قادرًا على نقاش الكفار، إذ تحدّدتْ نظريات المسلمين والمشركين الرئيسة في ذلك الوقت بعد النقاش المبدئي بين الطرفين في الزمن الأول من البعثة. وأي شك في أن ذلك هو الوقت الحقيقي للنقاشات الدينية (تفسير القرآن للقس "ويري").

لقد أصاب "نولدكه" في قوله أن حقيقة النظريات التي يقدّمها أي دين في بدايته لا تكون لِجدّتِها واضحةً على الكافرين بشكل كامل، فلا يكون النقاش الديني في بداية الدعوة إلا سطحيًا، ولكن بعد مرور وقت من النقاش ومداولة الآراء بين الطرفين يصبح أتباع الدين الجديد قادرين على تقديم أفكارهم بشكل محدد، كما يصبح أعداؤهم قادرين على تقديم أفكارهم المشتتة بشكل محدد. ولا شك أنه عند قيام حركة جديدة مكان الحركة السابقة البالية، لا يقدر الناس على دراسة أفكار الطرفين بشكل محدد وتحليلِها، إلا بعد قيامها ببضع سنوات. فلأن هذه السورة قد وجَّهت تحديًا قطعيًا للكافرين، فاستنتج "نولدكه" من شهادتها الداخلية هذه أنها نزلت في أواخر الفترة الأولى من البعثة النبوية.

لقد قلنا مرارًا بأن نزول القرآن الكريم ليس تابعًا للظروف والأحوال، وإنما نزل بسبب الحاجات الأساسية، فنهى عن السيئات وبيّن الحسنات، ورغم هذا الأمر الأساس، فإننا نسلّم -بصدد هذا التحدي الذي وجّهَتْه هذه السورة للكافرين- بأنه

● الهِناءُ: هو ما يُطلى به البعيرُ من الجرب. (المترجم)

قد تمَّ فعلاً، وذلك حين أصبح معارضو الإسلام قادرين على استيعاب هذا التحدي وقبوله، ولهذا فإننا لا نتردد في قبول رأي "نولدكه" هذا بأن هذه السورة نزلت في بداية السنة الرابعة من البعثة أو قبلها بقليل، بشرط ألا تكون شهادة التاريخ خلاف ذلك، لأن هذا هو الوقت الذي صار معارضو الإسلام فيه قادرين على استيعاب دعواه بشكل محدد، وكذلك على تحديد مبادئ دينهم إزاء الإسلام، فبرؤية إقبال الناس على الإسلام فكّروا في التصالح مع المسلمين بشكل ما. وسوف أبين لاحقًا أن هذه السورة لا تتناول هذا الموضوع فقط، بل تحتوي على مفاهيم واسعة جدا، غير أنه ليس بمستبعد أن تكون قد نزلت بسبب هذا الموضوع في وقتها المناسب. باختصار، إن "نولدكه" مستشرق كبير، بل هو رأس المستشرقين، وبالتالي فلا يسعهم إنكار أن زمن نزول هذه السورة هو السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة على الأكثر، وذلك بحسب القواعد التي وضَعها زعيمُ فئتهم. والحق أن التسليم بقول "نولدكه" هذا يفنّد كل الروايات التي ينقلها هؤلاء عن القصة المتعلقة بسورة النجم؛ إذ نزلت سورة النجم في السنة الخامسة أو بعدها. فما دامت سورة الكافرون قد سبقت سورة النجم نزولا – كما هو إيماننا، وكما هو ثابت بحسب القواعد التي وضعها المستشرقون أنفسهم– فكيف يعقل أن تكون مطالبة المشركين التي قد رُفضت في سورة الكافرون رفضًا باتا، قد أثّرت في الرسول ﷺ عند نزول سورة النجم، حتى جَرَتْ على لسانه –معاذ الله– كلمات تؤيد الشرك إلى حد بعيد؟ إذن، فالبحث الذي قام به المستشرقون حول زمن نزول سورة الكافرون لدليلٌ قاطع على زيف القصة الملفقة حول سورة النجم.

الترتيب والترابط:

وكما قلت من قبل، إن هذه السورة تتعلق بالزمن الأخير للإسلام على ما يبدو، إذ تتعلق السورة السابقة بزمن النبي ﷺ. لا شك أن الحديث فيها يمكن أن يكون عن أهل زمن الرسول ﷺ، بل هو فعلاً هكذا، ولكنها تركّز عما سيحدث في

الزمن الأخير خاصة؛ حيث بيّن الله تعالى أنه سيأتي على الناس زمان يصبح الكفر فيه غالبًا على الإسلام مرة أخرى، حتى يكاد يقضي على الإسلام من الناحية المادية، غير أن روح النبي ﷺ ستظهر في العالم ثانية متمثلةً في أحد تلامذته الذي يكون ظِلاً له، والذي سيوجِّهُ لأهل الكفر نفس التحدي الذي وجّهه النبي ﷺ في زمنه قائلا لهم بأنكم مهما بذلتم من جهد، فإني لن أخضع أمام الكفر، ولن أقبل ما يقدِّمه. وهو نفس الزمن الذي يسمى زمن المهدي والمسيح، والذي كان من المقدر أن ينال فيه الدجالُ أو يأجوجُ ومأجوجُ -أي المسيحيةُ- الغلبةَ الدينية والسياسية على الإسلام، ويرسي الحكم المسيحي في العالم بالقضاء على قوة الإسلام وشوكته في الظاهر. فهذه السورة تنبئ أن عامة المسلمين سيُلقون السلاح بتأثير الأفكار الغربية، ولكن روح محمد ﷺ ستأبى الاستسلام أمام هذه الأفكار غير الإسلامية كل الإباء، وسيكون الإسلام غالبًا على الكفر ثانيةً بدون اللجوء إلى العنف والإكراه، فتتطهر القلوب من الكفر والإلحاد وترغب في الإسلام مرة أخرى.

ومما يربط هذه السورة بالتي قبلها أن الله تعالى أخبر في سورة الكوثر أنه سيُنعم على محمد ﷺ بنِعم عظمى لا نظير لها عند أي نبي في العالم، وسيقدمه أمام الدنيا كآدم جديد، إذ يُهلِك نسل أعدائه، فلن يستمر إلا نسله ﷺ؛ أما في هذه السورة، فقد أشار الله تعالى إلى مضمون سورة الكوثر، فقال: يا مَن تنكرون محمدا رسول الله، ما دمتم لا تؤمنون به مع رؤية ما خوّلناه من منن عظمى، فكيف تظنون أن أتباعه سوف يتخلون عن دينهم متأثرين بعقائدكم الباطلة وحججكم الواهية؟ إذا كان الوهم يأبى أن يتخلى عن موقفه، فكيف يمكن أن تحيد المشاهدة عن موقفها؟ فجهودكم هذه غير عقلانية؛ إذ كان ينبغي عليكم -والحال هذه- أن تلزموا الهدوء وتنتظروا حكم الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿٢﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٥﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٦﴾

التفسير: يمكن أن يراد بـ "الكافرون" هنا فئة معينة من الكافرين، أو كل الكفار الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ أو الذين يأتون بعده. وكما قلت فيما سبق، فإن المراد هنا الكفار في كل زمن، أي أن الخطاب هنا موجه للكافرين من مشركي مكة وغيرهم في زمن الرسول ﷺ، وأيضا للكافرين من المسيحيين وأتباع الأديان الأخرى الذين سينالون القوة والغلبة في الزمن الأخير. فالمعنى: أقول لكم يا أيها الكافرون من مكة، أو يا أيها الكافرون إلى يوم القيامة، ولا سيما كفار الزمن الأخير الذي يصبح فيه الإسلام ضعيفا ومغلوبا على أيديهم.

أما قوله تعالى ﴿قُلْ﴾، فمعَ أن الخطاب هنا للرسول ﷺ في الظاهر، إلا أنه موجّه في الواقع إلى الذين يأتون بعده، لأن مفهوم الآية أوسعُ كثيرًا. والحق أن فيه إشارة إلى أن شخصية الرسول ﷺ ستظهر مرة بعد أخرى في الدنيا ظهورًا بُروزيًّا.. أي مجازيا. لو كان الخطاب هنا موجها إلى الناس العاديين فقط، لكان له معنى آخر، ولكن الله تعالى قد أمر الرسول ﷺ أن يتحدى بذلك أهلَ كلّ زمن، وفيه دلالة واضحة على ظهور قوته القدسية في كل زمن؛ حينًا على نطاق صغير، وحينًا على نطاق كبير، وإلى هذا الأمر نفسه قد أشار حديث الرسول ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود: كتاب الملاحم).. أي مَن يزيل ما تسرب إلى الناس من أخطاء دينية في ذلك القرن. فكلمة ﴿قُلْ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر نفسه، فكأن هذا الحديث يبين أن الرسول ﷺ سيظهر على رأس كل

قرن على الأقل في هذه الدنيا ليتحدى المنحرفين عن سبيله قائلا بأنني لن أتّبع طريقكم، وإنما أتّبع صراط الله الذي دلّني عليه، وهكذا سوف يتجدد الإسلام ويتطهر من كل الشوائب في كل عصر. أما في زمن المسيح والمهدي فيتجلى هذا الأمر بصورة أجلى، لأن هناك أنباءً عن ظهور فتن عظمى في زمنه، حتى قال الرسول ﷺ بأنه ما بُعث نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال. (أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال)

أما حرف النداء (يا) الوارد في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقد أضيف إليه ﴿أيُّها﴾ لوجود (ال) التعريف في ﴿الْكَافِرُونَ﴾، لأن اقتران (يا) بـ (ال) غير مستساغ عند العرب، فيفصلون بينهما بـ (أيها). هذا ما ذكره بعض النحاة، بينما يذكر آخرون سببًا إضافيا، وهو التنبيه. فسواء كان هناك سبب واحد أو اثنان، إلا أن العرب يضيفون بعد "يا" لفظ "أيها" إذا كانت الكلمة التالية تبدأ بـ (ال) التعريف. غير أنهم لا يضيفون "أيها" قبل لفظ الجلالة، فلا يقولون: يا أيها الله، مع وجود (ال) في لفظ الجلالة، مما يدل على أن (ال) هنا ليس للتعريف وإنما هو جزء من هذا الاسم الذاتي لله تعالى.

أما الذين قالوا بأن الهاء في ﴿أيُّها﴾ هي للتنبيه والتأكيد، فيقولون إن المعنى هنا: اسمعوا وَعُوا يا كافرون مِن أي مكان وزمان. أما المعنى العادي الخالي من التنبيه فهو: يا كافرون؛ سواء من العرب وغيرهم، وسواء من عصر الرسول ﷺ، أو مِن أي زمن آخر (مغني اللبيب).

أما ﴿الْكَافِرُونَ﴾، فاعلم أن الكفر يعني إنكار أي شيء كان، فقد ورد الكفر في القرآن الكريم بمفهوم جيد وسيئ أيضا، فمثال وروده بالمعنى الجيد هو في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(البقرة:٢٥٧).. أي أن الذين يرفضون ما يقوله الشياطين أو إخوانهم من الناس ويؤمنون بالله بصدق، فهم ثابتون على صخرة قوية. أما مثال ورود الكفر بالمعنى السيئ فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾(النساء:١٥١).

لقد ثبت من هنا أن لفظ الكفر في حد ذاته ليس حسنًا ولا سيئا، إنما معناه الأصلي الإخفاء والكتمان، فإخفاء السيئة أو الحسنة كفرٌ، ولكن قد كثر استعماله في القرآن الكريم بمعنى إنكار الخير، لذلك يراد به المعنى السيئ عادةً إلا إذا كانت هناك قرينة تخالف هذا المعنى. كما أن "الإيمان" يُستخدم عادةً بالمعنى الحسن، إلا إذا كانت هناك قرينة؛ إذ ورد لفظ الإيمان في القرآن الكريم بالمعنى السيئ أيضا، كقوله تعالى ﴿يُؤْمِنونَ بِالجِبْتِ والطّاغوتِ﴾(النساء: ٥٢).. أي أنهم يؤمنون بالشيطان والأمور الشيطانية.

والحق أن استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمات بمعان معينة لا يخلو من حكمة، فرغم أن لفظ الإيمان يعني التصديق، ولكنه يعني أصلاً إتاحة الأمن والبركة للآخر، وحيث إن معناه الأساسي هذا حسنٌ، فاستعمله القرآن بالمعنى الحسن عادةً، إلا أن يكون هناك قرينة. أما لفظ الكفر فيعني الإخفاء والكتمان، وهذا المعنى ليس جيدًا أساسًا؛ إذ يشير إلى الشر والسوء، لأن الشر هو الذي يُخفى عادةً، فاستخدم القرآن لفظ الكفر بالمعنى السيئ عادةً، إلا أن يكون هناك قرينة. إذن، فلفظ الكفر سيئٌ إلا أن يكون هناك قرينة، ولفظ الإيمان حسنٌ إلا أن يكون هناك قرينة.

أ: لقد قال المفسرون كلهم -تقريبا- أن الحديث هنا عن كفّار مكة. لقد سجّل السيوطي في "الدر المنثور" روايات مفادها أنّ هذه السورة نزلت ردًّا على بعض أسئلة المشركين.

أما الشوكاني صاحبُ "فتح القدير" فقال: إن "ال" في ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ هي للجنس.. أي أن الآية إشارةٌ إلى الكافرين كلهم، إلا أن المقصود هنا هم كفار مكة الذين وجَّهوا للنبي ﷺ بعض الأسئلة وماتوا على الكفر.

أما ابن جرير فقال في تفسيره: "قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوك" (جامع البيان).

أما الشيخ إسماعيل حقي البروسي فقال: "وهُمْ كَفَرَةٌ مخصوصة، فلا يَرِدُ أن مقتضى هذا الأمر أن يقول كل مسلم ذلك لكل جماعة من الكفار" (روح البيان).

أما العلامة الألوسي فقال: "قال أجلَّةُ المفسرين: المراد بهم كفرةٌ من قريش مخصوصون، قد علم الله تعالى أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبدا". (روح المعاني)

أما العلامة القرطبي فقال: الألف واللام هنا للمعهود الذهني، أي أنها تشير إلى الكافرين الذين في أذهان الناس. أما لو اعتبرناها للجنس، فأيضًا ليس المراد منها إلا أولئك الكفار الذين قد قضى الله أن يموتوا بكفرهم، فاللام هنا للتخصيص لا للعموم. (الجامع لأحكام القرآن)

أما الماوردي فقال: "عُني بالكافرين قوما معينين، لا جميع الكافرين، لأن منهم مَن آمن، فعَبَد الله، ومنهم من مات وقُتل على كفره". (الجامع لأحكام القرآن)

أما الزمخشري فقال: "المخاطبون كفرةٌ مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون." (الكشاف)

أما العلامة أبو حيّان فقال: "والكافرون ناس مخصوصون وهم الذين قالوا له تلك المقالة." (البحر المحيط)

لقد تبيّن من هنا أن جميع المفسرين يرون أن هذه الآية خاصة بمشركي مكة، بل بجماعة مخصوصة منهم، كانوا قد سألوا النبي ﷺ بعض الأسئلة.

لا شك أن اللفظ العام يخصَّص بسبب بعض الدلالات الخاصة أو السياق، وهناك أمثلة على ذلك في القرآن الكريم، ولكن تخصيص العامّ بلا سبب لا يجوز، لأن هذا يعني تحديد مفاهيم القرآن الواسعة، ومحاولة حصر محيطه في نهر صغير، وهذا ليس خدمةً للقرآن، بل عداءٌ له، لذلك فعلينا أن نرى ما إذا كان هناك قرينة تجبرنا على تحديد المعاني الواسعة الثابتة من اللغة وأسلوب القرآن. فالكافر يعني لغةً المنكِر، سواء كان مشركًا أو غير مشرك، مكيًّا أو غير مكيّ، فالمراد من ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا كل المنكِرين.

لا شك أنه في اللغة العربية –بل في كل لغة تقريبًا– تكون الكلمة مخصوصة المعنى في الظاهر أحيانًا، وهي تعني العموم في الواقع، كما يحدث العكس أيضًا، ويُلجأ لهذا الأسلوب من أجل الاختصار والإيجاز، فمثلاً إذا قلتَ واضعًا في الحسبان شخصا معينا: إن الشرير يعاقَب دائما، فلفظُ الشرير عامّ، ولكنك تقصد

به شخصا معيّنا، كذلك نقول لكاذب أحيانا: لقد كذبتَ وسوف تخزى الآن، ونعني بذلك أن كل كاذب يذل ويهان، وكذلك سيخزى هذا أيضا. فتعميم الخاص وتخصيص العام قاعدة في كل لغة تقريبا، بل هو ركن أساس في اللغة، ولولاها لاضطررنا لاستعمال عبارات طويلة لبيان أمر بسيط. لا شك أن هذا الأسلوب قد يؤدي إلى الإبهام، لكن يمكن تفاديه بالنظر إلى سياق الكلام ومحله. وقد اتبع القرآن أيضا هذا الأسلوب، غير أن علماء أصول الفقه قالوا بأنه مع أن العام قد يُراد به الخاص، والخاص قد يراد به العام، إلا أن القاعدة الغالبة أن العموم فوق الخصوص، بمعنى أنه إذا كان المعنى عامًّا فلا يمكن تخصيصه لورود كلمات مخصصة، بل يراد به العموم، أما تخصيص العموم فيحتاج إلى قرينة واضحة قوية، ولا يجوز تخصيص المعنى العام إلا بدليل قويّ؛ فقد قال السيوطي: "اختلف أهل الأصول؛ هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب، والأصح عندنا الأوّل" (الإتقان، ج١ ص ٥٠ النوع التاسع: معرفة سبب النزول). وكتب الشيخ محمد الخضري، أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية: "العام إذا ورد أُخِذَ على عمومه، إلا إذا قام دليل التخصيص، وهو المخصِّص." (أصول الفقه للشيخ الخضرمي: ص٢٤١)

فالحق أن الموضوع يكون عامًا في بعض الأحيان، ويراد به قوم مخصوصون، وأحيانًا تخاطَب به فئة معينة، ولكن يراد به الناس جميعا، شريطة أن يكون هناك قرينة؛ ولذلك أقول: لو كان بيد المفسرين الذين طبّقوا هذه الآية على قوم أو أفراد مخصوصين دليلٌ فلا يمكن أن نخطّئهم، لأنه جائز ومستعمل في القرآن وفي لغات العالم أيضا. فالسؤال الأساس هنا: هل في هذه السورة قرينة تجعل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ مخصوصا بفئة معينة، وتمنع من تعميمه؟ لمعرفة ذلك علينا أن نرجع إلى كلمات هذه السورة. لقد قال الله تعالى هنا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وقد أطلق القرآن كلمة الكافر على غير المشركين أيضا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(البينة:٢).

فكلمة الكفر أُطلقت على اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار مثلما أُطلقت على المشركين، فثبت أن لفظ ﴿الكافِرونَ﴾ عامٌّ وليس خاصًّا.

والآن نرجع إلى مضمون هذه السورة، فآياتها التالية تقول: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. والواضح أن موضوعها عام، لأن الرسول ﷺ وصحابته ما كانوا يتجنبون عبادة الأصنام فقط، بل لم يكونوا يعبدون بمفهوم العبادة الذي كان عند اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى. فمثلاً لم يصلِّ الرسول ﷺ الصلاة على الطريقة اليهودية ولا النصرانية، كما أن اليهود والنصارى لم يصلّوا الصلاة الإسلامية قط. فموضوع هذه الآية -أي لن تعبدوا كما أعبد، ولن أعبد كما تعبدون، أو لن تعبدوا معبودي ولن أعبد معبودكم- كما ينطبق على مشركي مكة فهو ينطبق على غيرهم من كفار العالم أيضا، وذلك لأسباب منها أولاً: لا يوجد في الدنيا دين سوى الإسلام يقدِّم التوحيد الكامل، وإذا كان دين ما يعلّم التوحيد في الظاهر فإنه يختلف مع الإسلام في بيان صفات الله تعالى اختلافًا كبيرا؛ فالديانة اليهودية مثلاً تقول بأن الإله لا يمنح قربه إلا للشعب اليهودي، فمتى كان للرسول ﷺ أو لأي مسلم آخر أن يعبد مثل هذا الإله الذي اتخذ بني إسرائيل أحباءه والذي فرّق بينهم وبين الشعوب الأخرى في معاملته؟ إن عبادة مثل هذا الإله تعني ببساطة أن الإسلام باطل، لأن مؤسسه غير إسرائيلي.

والديانة المجوسية أيضًا -وأهلها أيضا من أهل الكتاب يقينًا- تختلف مع الإسلام في بيان صفات الله تعالى اختلافا كبيرا.

فلو كان أتباع الأديان الأخرى -أعني سوى مشركي مكة- مستعدّين لأن يرضوا بالإله الذي يقدّمه الإسلام أو بطريقة العبادة التي يعلّمها الإسلام، أو لو كان الرسول ﷺ وأتباعه مستعدّين لأن يعبدوا آلهة الأديان الأخرى أو يتّبعوا طريقة عبادتهم، لجاز لنا القول بأن لفظ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا -رغم كونه عامًا- مخصوص بقوم لا يمكنهم أن يعبدوا عبادتنا، كما لا يمكننا أن نعبد عبادتهم، ولكن الواقع

خلاف ذلك، إذ ينطبق مفهوم هذه السورة على الكافرين كافة، وبالتالي لا يمكن تخصيص معنى ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا.

بعد مناقشة الموضوع على ضوء قواعد اللغة العربية وأسلوب القرآن ومضمون هذه السورة، نتوجه الآن إلى تحليل الشهادات الخارجية التي بسببها حدّد المفسرون مفهوم ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عَن ابن عَبَّاس، رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالاً فَيَكُونَ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلا تَذْكُرْ آلِهَتَنَا بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَلَكَ فِيهَا صَلاحٌ، قَالَ:"مَا هِيَ؟"، قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً. قَالَ:"حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي". فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ (الدر المنثور).

والآيات التي أشير إليها هنا من سورة الزمر هي: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الآيات:٦٥-٦٧).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في "المصاحف" عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لَقِيَ الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلتعبدْ ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشتركْ نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصحَّ مِن الذي أنت عليه كنتَ قد أخذتَ منه حظًّا، وإن كان الذي أنت عليه أصحَّ مِن الذي نحن عليه كنّا قد أخذْنا منه حظًّا، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ حتى انقضت السورة. (الدر المنثور)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن وهب قال: قالت قريش للنبي ﷺ: إنْ سَرَّك أن نتّبعك عامًا وترجع إلى ديننا عامًا؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. (الدر المنثور)

وأخرج عبد بن حُميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن قريشاً قالت: "لو استلمتَ آلهتَنا لعَبَدْنا إلهَك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها." (الدر المنثور)

هذه هي الروايات التي يقول المفسرون بناءً عليها أن لفظ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا يعني كفارًا مخصوصين أثاروا أمام رسول الله ﷺ قضية عبادة آلهتهم.

وفيما يتعلق بوعد الكفار للرسول ﷺ بالإعزاز والإكرام شريطة أن يتخذ موقفًا ليّنًا تجاه آلهتهم، فهذا ليس ثابتًا من الحديث فقط، بل من روايات كثيرة من التاريخ، ومروي بالتواتر، أما القول بأن هذه السورة قد نزلت لهذا الغرض نفسه، ففيه نظرٌ وشكّ.

ولنأخذ الروايات الثلاث الأخيرة من المذكورة آنفًا، فهي مختصرة وملخّصها أن الكفار عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة فيعبدوا إلهه سنة، أو أنهم عرضوا عليه عرضًا مفتوحًا بدون شرط السنة أيضًا. إن مثل هذا الكلام ليس غريبا من الكفار، لأن الإنسان إذا اتخذ موقفا منافيا للعقل، ثم وجد قوله لا يؤثّر في القوم، بل وجدهم ينحرفون عن عقيدته، فإنه يضطرّ لمثل هذه العروض السخيفة غير المنطقية. ولكن السؤال هنا: هل نزلت هذه السورة بسبب هذه المطالبات فعلاً؟ وهل هناك ضرورة أن تنزل سورة في القرآن على مطالبة كهذه؟ وهل نزولها لهذا السبب معقول؟

والجواب على الأمر الأول أنه لا يوجد في الصحاح الستة أي حديث بهذا المعنى. أليس مستغربا أن تخلو الصحاح من ذكر واقعة تبلغ من الأهمية أن الله تعالى أنزل بشأنها سورة في القرآن الكريم ردًا على عرض الكافرين هذا؟

أما السؤال الثاني: هل هناك ضرورة عقلاً لنزول سورة على مثل هذا العرض؟ فجوابه واضح جدا. لقد نزل الوحي على الرسول ﷺ منذ أول يوم مركِّزًا على

التوحيد، فأول سور القرآن نزولاً جاءت تحثّ على عبادة الإله الأحد، وإنْ لم ترد فيها كلمة التوحيد؛ قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٢-٦).. أي قُمْ بالدعوة بين الناس باسم ربك الذي خلق الكون كله، والذي أودعَ حُبَّه الإنسانَ عند خلقه. نعمْ، انشرْ في الدنيا اسمَ ذلك الإله الذي هو الأكرم، الذي علَّم الإنسان شتّى المعارف والعلوم بالكتابة.. أي منَحه التعاليم الأبدية والمعارف التي لم يعرفها من قبل.

فمضمون هذه الآيات يدل على كمال ذات البارئ تعالى أولاً، وثانيًا: يشير إلى أن الله تعالى وحده لم يبرح يهدي الإنسانية بوحيه، وثالثًا: أن وحي الله تعالى يحتوي علومًا لا يمكن أن يعلَمها أحد. وكل هذه الأمور تقضي على الشرك، فما دام الله تعالى يعلِّم العباد على أيدي الأنبياء على مر العصور، ويُنزل الهدي الكامل على الدوام، فمتى يبقى للآلهة الباطلة مكان في هذا النظام الروحاني؟

والوحي الثاني الذي نزل بعد ذلك هو سورتا الْمُزَّمِّل والْمُدَّثِّر؛ قال الله تعالى في سورة المزمل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾ (الآية:١٠)، وقال تعالى في سورة المدثر: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (الآيات:٤-٦).. أي عليك أن تبتعد عن الشرك كل البعد ولا تُكبِّر إلا ربك، واعلمْ أن إله المشرق والمغرب إله واحد لا شريك له، فعليه توكَّلْ.

فأيُّ حاجة -بعد هذا البيان الواضح البيّن عن التوحيد- أن يُنزل الله تعالى سورة مستقلة ردًّا على عرض الكافرين هذا؟

ثم إن الرسول ﷺ كان لا يزال يعبد الله الأحد منذ السنوات الأربع السابقة لنزول سورة "الكافرون"، وكان يؤكد بعَمله أن لا إله إلا الله وحده، وما كان الخصام بينه وبين أهل مكة إلا لقوله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فكيف يصح القول -والحال هذا- أن الكفار عرضوا عليه ﷺ هذا العرض، فطلب من الله الهداية، فنزلت هذه السورة تنهاه عن عبادة الآلهة الأخرى؟ ما أسخفَه من قول وما أبعدَه عن العقل! فهل يمكن لأحد أن يصّدق أن مسيحيًا قال لأضعف مسلم

في العالم: تعال اعبدْ إلهنا عيسى أيامًا، ونحن نعبد إلهك أياما، فقال المسلم له: انتظرْ حتى أسأل علماءنا؟! وما دام هذا محالاً على أضعف وأجهلِ مسلمٍ، فكيف يقال أن سيد العقلاء ورافع راية التوحيد ﷺ ظل ينتظر أن يخبره الله كيف يردّ على هذا العرض؟ أو أنه ﷺ كان بحاجة إلى مثل هذا التوجيه بعد سماع عرض الكافرين هذا، رغم انقضاء أربع سنوات على دعواه؟ إني لا أستغرب من مثل هذا العرض من الكفار، لأن الأمة المنهزمة ترتكب كثيرا من الحماقات المماثلة جراء القلق والاضطراب، إنما أقول أن من غير المعقول أن يتردد الرسول ﷺ لدى سماع عرضهم ويظلّ ينتظر حتى يأتيه الجواب من الله تعالى. أنا على الأقل لا أصدق أنّ شخصا عاقلا سيسلّم بهذا الافتراض ولو للحظة. فهذا السؤال لم يردّ عليه القرآن سلفًا فحسب، بل فيه نقائص أخرى كثيرة بحيث من المحال أن ينتظر الرسول ﷺ وحي الله بصدده. فهل قولهم: سنعبد إلهك إذا عبدتَ آلهتنا، هو مما ينتظر الرسول ﷺ وحي الله تعالى للرد عليه؟ الواقع أنهم طالبوا الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم التي لا يؤمن بها، وعرضوا عليه أن يعبدوا الله الذي كانوا يؤمنون به ويعبدونه سلفا. إنما يماثل عرضهم هذا الطريفةَ الشهيرة عندنا بأن امرأة ذهبتْ إلى جارتها تستأذنها بأن تقوم بطحن الحبوب برحاها، فأذنت لها، فبدأت بالطحن، ففكّرتْ صاحبة البيت أن تساعد جارتها في الطحن قليلا، فقالت لها: دعيني أطحن مكانك قليلا؛ وبينما اشتغلت صاحبة البيت بالطحن رفعتْ جارتها غطاء مائدتها وأخذت تأكل طعامها قائلة: إنني أستحيي أن تقومي بعملي ولا أعمل لك عملا، فاطحني حبوبي من أجلي وأنا آكل طعامك من أجلك.

لقد أُلّفتْ هذا الطريفة لكشف حماقة بعض السذج، فهل من عاقل يقول عند سماعها: ما هو الحل لقول هذه المرأة الحمقاء؟ إن عرض الكفار ليس أقلَّ غباءً من قول هذه الحمقاء. لعل المفسرين ظنوا أن مشركي مكة كانوا يؤمنون بآلهتهم ولم يكونوا يؤمنون بالله تعالى، فعرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتم وسيعبدون إلهه، ولا شك أن عرضهم كان خلاف الإيمان وخلاف الدين بلا شك، ولكن لم يكن غير منطقي. والحق أن عرضهم كان خلاف الإيمان والدين والعقل أيضا؛ ذلك أنهم

كانوا يؤمنون بالله تعالى كما يؤمن الرسول ﷺ، وكانوا يعتبرونه ﷻ سيّدَ الآلهة كلها، إنما خطؤهم أنهم كانوا يرون بضرورة اتخاذ آلهة أخرى مع الله، إذ يقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(الزمر:٤).. أي أن الذين يتخذون آلهة من دون الله تعالى يقولون إنما نعبدها لتزيدنا قربًا من الله تعالى. لقد تبين من هنا أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى، وبأنه مَلِكُ الكون كله.. غير أنهم كانوا يدّعون أن هناك آلهة أخرى مقرَّبة عند الله، وأنهم يعبدونها لكي تزيدهم قربا من الله وتشفع لهم عنده. فلما كان مشركو مكة يؤمنون بالله تعالى وبضرورة قربه، وما كانوا يعبدون الآلهة الباطلة إلا لتشفع لهم عند الله تعالى، فكيف يُتصور أنهم ما كانوا يعبدون الله تعالى؟ وإذا كانوا يعبدونه تعالى، فكم كان سخيفًا بأن يقولوا للرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم فيعبدوا إلهه؟ إن الإيمان بالله تعالى كان أمرًا مشتركا بين المسلمين والمشركين، إنما كان النزاع حول الآلهة الباطلة، فمطالبتهم النبيَّ ﷺ أن يؤمن بما لا يؤمن به سلفًا، فيؤمنوا بما هم مؤمنون به سلفًا، لهو أمرٌ يُضحك المخبول أيضًا، إذ يقول لأصحاب هذا العرض: ماذا تُعطون محمدًا مقابل مطالبتكم؟ إنكم تُعطونه ما هو مِلْكٌ له، وتطالبونه بما لا تملكونه ولا غيرُكم. فما هذا الصلح الذي تدعونه إليه؟

فمطالبة الكفار التي وردت في هذه الروايات خلاف للعقل، وتتعلق بأمور قد حسَمها القرآن سلفًا، فلم تكنْ بعده حاجة لنزول سورة لحسمها، فإن خدام النبي ﷺ -ناهيك عن رسول الله ﷺ نفسه- يستطيعون الردّ على عرض الكافرين هذا ردًّا مفحمًا. فمطالبة الكفار حماقة منهم، ومن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ قد قال ردًّا على حماقتهم: إنه سؤال وجيه ولا أستطيع الرد عليه، وسوف أجيبكم بعد أن أسأل الله تعالى. ثم إنه من غير المعقول أن يُنزل الله تعالى للرد على عرضهم السخيف سورةً لا تتضمن إلا ما كان المسلمون يعلنونه منذ أربع سنوات، ويضحي من أجله رجالهم ونساؤهم وأحرارهم وعبيدهم بأرواحهم واحدا بعد الآخر.

لا أقصد مما ذكرتُ من قبل أن الكافرين كانوا يعبدون الله تعالى مثلما كان محمد رسول الله ﷺ يعبده، كلا، بل ما كانت الأمم الموحِّدة في زعمها كاليهود والنصارى أيضا تعبد الله تعالى كما كان يعبده النبي ﷺ. إن طريقة العبادة في الإسلام طريقة جديدة فريدة من نوعها لا نظير لها في الماضي، لأن النظرية الإسلامية هي نظرية التوحيد الكامل، إذ لم يوجد توحيد كامل في الدنيا قبل الإسلام. فلا شك أن أهل مكة لم يكونوا يعبدون الله تعالى كعبادة المسلمين له، إلا أنهم كانوا يعبدونه ﷻ حتمًا، وكان مِن طرُق عبادتهم تقديم النذور لله تعالى، كما هو ثابت بجلاء من القرآن الكريم؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(الأنعام:١٣٧). فكان هؤلاء يرون أن الله تعالى أعظم شأنًا من الآلهة الأخرى، ولذلك فما هو لله يصير إلى آلهتهم الأخرى -تمامًا كما يصير مال الأب إلى الأبناء -ولكن ما هو لآلهتهم لا يصير إلى الله ﷻ.

فالتدبر في هذه الآية يكشف أن القوم كانوا يعبدون الله تعالى، غير أنه لم يكن في عبادتهم لله تعالى ركوع ولا سجود، إذ لم يكونوا يركعون ويسجدون لأصنامهم أيضا، إنما كانوا يثنون عليها في شعرهم ويقدمون النذور باسمها، أو يقفون أمامها للدعاء رابطي الأيدي إذ كانوا يرونها ماثلة أمامهم. فثبت أن أهل مكة كانوا عبدة أصنام بلا شك، لكنهم كانوا يعبدون الله أيضا. كانوا يعبدون أصنامهم ويعبدون الله أيضا بحسب فهمهم وتقاليدهم.

وهناك أحداث كثيرة في التاريخ تؤكد أنهم كانوا يعبدون الله تعالى فعلاً، فهناك حادث شهير لعبد المطلب قد وردت تفاصيله في السيرة النبوية لابن هشام، وملخّصه أنه قد روي عن أبي طالب أن أباه عبد المطلب حين أمَر بحفر بئر زمزم قال: إِنّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: احْفِرْ طَيْبَةَ. قَالَ قُلْت: وَمَا طَيْبَةُ؟ قَالَ ثُمّ ذَهَبَ عَنّي. فَلَمّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إلَى مَضْجَعِي، فذكَر لي اسمًا آخر للبئر. ثم لم يزل يأتيه الملاك في المنام ويذكر له اسمًا جديدا للبئر في كل مرة، حتى ذكَر

اسم زمزمَ مع علاماته ومكانه. وبناءً على هذه الرؤيا أخذ عبد المطلب المعولَ وخرج مع ابنه الحارث، وكان ابنه الوحيد حينذاك، وأخذ يحفر المكان -علمًا أن بئر زمزم قد فجّره الله تعالى من أجل إسماعيل عليه السلام، وكانت هاجر قد جعلتْ حوله حاجزًا، ثم حوَّله العرب إلى بئر فيما بعد، ثم رُدمت واختفى أثرها، فكشف الله تعالى مكانها لعبد المطلب في الرؤيا ثانية- فلما رأى عَبْدُ الْمُطّلِب آثار البئر كَبّرَ -وهذا دليل على أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى ويرفعون اسمه- فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمُطّلِب، إِنّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ وَإِنّ لَنَا فِيهَا حَقّا، فَأَشْرِكْنَا مَعَك فِيهَا؛ قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، إِنّ هَذَا الأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ وَأُعْطِيتُه مِنْ بَيْنِكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: فَأَنْصِفْنَا فَإِنّا غَيْرُ تَارِكِيك حَتّى نُخَاصِمَك فِيهَا. قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمُكُمْ إِلَيْهِ. قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدٍ هُذَيْمٌ. قَالَ نَعَمْ..... فَرَكِبَ عَبْدُ الْمُطّلِب مع جماعة من قريش قاصدًا الكاهنة، فنفد ماؤهم في الطريق، فحاولوا البحث عن الماء كثيرا من دون جدوى، حتى حفروا بئرًا، ولكن لم يخرج الماء، فقال عبد المطلب: ما الفائدة من الجلوس هنا؟ تعالوا نبحث عن الماء فيما حولنا. فركبوا مطاياهم، وتَقَدّمَ عَبْدُ الْمُطّلِب إِلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا. فَلَمّا انْبَعَثَتْ بِهِ انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفّهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فنادى: قد سَقَانَا اللّهُ -ومن هنا أيضا يتضح أنهم كانوا يؤمنون أن الله هو المعبود- فقالوا له: قَدْ وَاَللّهِ قُضِيَ لَك عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطّلِب، وَاللهِ لا نُخَاصِمُك فِي زَمْزَمَ أَبَدًا، إِنّ الّذِي سَقَاك هَذَا الْمَاءَ بِهَذِهِ الْفَلاةِ لَهُوَ الّذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ"-هنا أيضا ترى أنهم يقسمون بالله- فرَجَعُوا جميعا إلى مكة. فنذر عبد المطلب حين لقي مِن قريش ما لقي عند حفر زمزم: لئنْ وُلِدَ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرَنَّ أحدَهم لله عزوجل عند الكعبة. فلما توافَى بنوه عشرةً، جمَعهم ورؤساءَ قريش عند الكعبة، ثم أخبرهم بنذْره الذي نذر، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له، وقالوا له: كيف تصنع؟ فدخل بهم على "هُبل" في جوف الكعبة، وكان عند "هُبل" سبعة أقداح يقترعون بها، فوقف بجانب "هُبل" يدعو الله تعالى عند إلقاء القرعة، فخرجتْ باسم ابنه "عبد الله"، فقال القوم: لن نسمح لك بنحره. وبعد جدال

طويل تحاكموا إلى كاهنة في يثرب، فأشارت عليهم بنحر عشرة جِمال فداءً عن عبد الله، ولكن عبد المطلب لم يرضَ إلا أن يُلقوا القرعة، وشرع في الدعاء فخرجت القرعة باسم عبد الله، فزاد عشرةَ جمال أخرى، فصارت عشرين جملاً، ومع ذلك خرجت القرعة باسم عبد الله، ولم يزل يزيد حتى جعلها مائة جمل، فخرجت القرعة بمائة جمل بدلاً من عبد الله -سبحان الله، وكأن الملائكة لم تنزلْ تصرّ على الله تعالى بأن يزيد الثمن، فعبدُ الله هو والدُ محمد ﷺ- فقال أهل مكة لعبد المطلب: الآن قد رضي ربك، فنحرَ مائة جمل (السيرة النبوية لابن هشام: في ذكر زمزم وما جرى من الخُلف فيها).

لقد تبين من هذه الواقعة أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى، ينذرون له النذور ويدعونه عند الشدائد، ويعتقدون أن الأصنام آلهة تابعة لله تعالى، وعليه، فلا يصحّ أن يقال بأنهم كانوا يعبدون الأصنام فقط ولم يكونوا يعبدون الله تعالى. فعرضُهم على الرسول ﷺ بأن يعبد أصنامهم ليعبدوا إلهه دليلٌ بيّن على حمقهم وغبائهم، لأن النبي ﷺ لم يكن يؤمن بأصنامهم، ولكنهم كانوا يؤمنون بإلهه. فأنْ يتمنى النبي ﷺ نزولَ سورة على عرضهم السخيف هذا يتنافى مع العقل؛ لأن أي طفل مسلم يستطيع الرد على عرضهم.

أما السؤال الثالث: هل يمكن أن تنزل سورة مستقلّة كاملة ردًّا على سؤالهم هذا؟ فجوابه: كلا، لأننا لو قلنا بأن هذه السورة نزلت ردًّا على سؤالهم، فلا تبقى لها قيمة، إذ إنها ستعني عندها فقط: أيها الكافرون إني لا أعبد آلهتكم ولا تعبدون آلهتي، ولكم دينكم ولي دين. وحصرُ سورةٍ كتابٍ عظيم كالقرآن الكريم في هذا المعنى المحدود الخالي من أية معارف أو دقائق أو أمورٍ روحانية، لدليلٌ على السطحية المفرطة؛ ذلك أن أية سورة من القرآن الكريم لا تخلو من معارف رائعة واسعة، أما مضمون هذه السورة -كما تقدِّمها هذه الروايات- فبسيطٌ جدًّا أولاً، ومحدودٌ جدا ثانيا، ولو اختصرناه لكان كالتالي: اذهبوا أيها الكافرون، فإنكم لا تستمعون إليّ، فلن أستمع إليكم. إننا لا نجد في القرآن الكريم أي سورة أو آية تشتمل على مفهوم سطحي جدًا هكذا، بل الحق أن كل كلمة قرآنية نبعٌ يفيض بالمعارف. فلأن

هذه الروايات تضيّق مضمونَ هذه السورة، فلذلك يمكننا القول أن من المحال أن تنزل سورةٌ ردًّا على الأسئلة السخيفة الواردة في هذه الروايات؛ وهذا هو السبب في أنني أسهبت في الردّ على هذه الفكرة، وإلا فما كان هناك حاجة لذلك مطلقا.

والآن أتناول الرواية الأولى التي نقلها ابن جرير عن ابن عباس. لقد ورد فيها أن الكافرين عرضوا على النبي ﷺ عرضين، فقالوا له أوّلاً: نعطيك مالاً حتى تصبح أغنى شخص في مكة، ونزوّجك بأجمل امرأة ترضى بها، شريطة أن لا تذكر آلهتنا بسوء، وثانيًا: وإذا لم ترضَ بذلك فنعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة (جامع البيان).

والأمر الأول المذكور هنا ثابتٌ تاريخيا من روايات كثيرة، إلا أنها تذكر أيضا أن الرسول ما لبث أن ردّ على عرضهم بقوله: واللهِ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، فلن أترك عبادة الله الأحد (السيرة النبوية لابن هشام: ما دار بين الرسول ﷺ وأبي طالب). وبعد هذه الإجابة، كم هو سخيف ما يُذكَر بأن النبي ﷺ قال لهم على عرضهم هذا: "انتظِروا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي". فكلّ الروايات الأخرى من الحديث والتاريخ تُجمِع على أن الرسول ﷺ لما سمع مطالبتهم رفَضها فورا وقال: لن أتخلى عن عبادة الله الأحد مهما فعلوا. فكيف يمكن لمن أجابهم هكذا مِن قبل، أن يقول لهم هذه المرة: انتظِروا حتى أسترشد ربي؟ فهذه الجزئية من هذه الرواية باطلة وغير منطقية على ضوء الأحاديث الأخرى والتاريخ.

ثم هناك اختلاف عند المحدثين في مضمون هذه الرواية، فبعضهم قد نقلوها دون أي ذكر بأن النبي ﷺ طلب منهم أن ينتظروا حتى يسترشد ربه، فقد نقل الزمخشري مثلاً: "رُوي أنّ رهطًا من قريش قالوا: يا محمد، هلمّ فاتّبعْ ديننا ونتّبعْ دينك: تعبُدُ آلهتَنا سنةً ونعبد إلهك سنة. فقال: "معاذ الله أن أشرك بالله غيره". (الكشاف)

فهذه الرواية تكشف أن الرسول ﷺ لم يقُلْ لهم بأن ينتظروا حتى يسترشد ربه، بل ردَّ عليهم ردًّا يتفق مع غيرته الإيمانية وقال: معاذ الله، أن أشرك بالله غيره.

وهذه الرواية قد أوردها الألوسي في "روح المعاني"، والشيخ إسماعيل حقي البروسي في "روح البيان"، تمامًا كما أوردها صاحب الكشاف.

أما العلامة أبو حيان فقد ذكر في تفسيره هذا الحديث دون أي ذكرٍ بأن النبي ﷺ ردَّ عليهم: معاذ الله، أن أشرك بالله غيره، إلا أنه لم يذكر أيضا الأمر الذي نرفضه، أعني أنه لم يذكر أن النبي ﷺ ردَّ عليهم قائلا: انتظِروا حتى أسترشد ربي (البحر المحيط). فعدمُ ذكر أبي حيان لهذه الكلمات لدليلٌ بيّن على أنه اعتبرها باطلة.

أما الإمام ابن كثير فهو أيضا لم يورد هذه الجملة في تفسيره. علمًا أن الإمام ابن كثير هو أكثر دقةً بين المفسرين الذين يذكرون الأحاديث في تفاسيرهم، إذ يسعى دائما أن يذكر الروايات الموثوق بها.

أما العلامة القرطبي الفقيه الشهير فهو أيضا لم يذكر هذه العبارة في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن).

أما كبار المفسرين الذين لا يسعون لجمع الأحاديث أيا كان مستواها، بل يجمعون بين الرواية والدراية، فالغريب أن الرازي منهم لم يكتفِ بنقل هذه الرواية مع هذا المضمون الخاطئ فحسب، بل أضاف إليها تنميقاتٍ من عنده؛ حيث قال بأن هذه الآية تعني: يا محمد، لقد جاءك قومك وأغروك بأنهم سيتّبعون دينك شريطة أن تتّبع دينهم، فلم ترفض عرضهم، رغم كل ما أنعمتُ عليكم من الأيادي والمنن (تفسير الرازي).

نعوذ بالله من هذه الخرافات.

أما كبار المفسرين الآخرين الذين يهتمون بالدراية مع الرواية، فإما أنهم نقلوا روايات معارضة لهذه الروايات -ولكنهم للأسف لم يذكروا رُواتها- أو أنهم نقلوا هذه الرواية من دون أن يذكروا هذه الجزئية السخيفة، وهكذا أكدوا أنهم اعتبروها باطلة.

إن التدبر في هذه الأمور كلها يكشف أن هناك روايات أخرى تدحض ما ورد في هذه الروايات من كلام سخيف، وأن التاريخ أيضا يفنده بالتواتر أيضا. لا شك أن التاريخ يؤكد أن الكافرين عرضوا على الرسول ﷺ لغبائهم أن يتخذ موقفًا ليِّنا تجاه آلهتهم فيتخذوه سيدًا عليهم، ولكنه لم يلبث أن رفض عرْضهم بشدة، مما

يبرهن على أن هذه السورة لم تنزل ردًّا على عرضهم، بل إن مضمونها أعظم وأسمى من هذا السؤال، وإن كان الجاهل يمكن أن ينخدع بكلماتها، فيظن أنها تتعلق بعَرْضهم.

ب: لقد أثار البعض هنا شبهة أخرى بأن هذه الآية بدأت بكلمة ﴿قُلْ﴾، مما يدل على أنها نزلتْ ردًّا على سؤال أثاره بعض القوم (جامع البيان).

والجواب أنه إذا اعتبرنا منطقهم هذا صحيحا، فيقال لهم: ما هو السؤال الذي نزلت سورتا الفلق والناس ردًّا عليه، فكلتاهما تُستهلُّ بكلمة ﴿قُلْ﴾ مثل سورة "الكافرون"؟ لماذا لزم الصمتَ المفسرون الذين أثاروا هذه الشبهة هنا، ولم يشعروا بحاجة للرد على هذا السؤال؟

الواقع أن كلمة "قُلْ" هنا تفيد الإعلان، والمعنى: أعلِنْ مضمون هذه السورة بين الناس. لا شك أن مضامين جميع السور حَرِيّةٌ بأن يتمّ الإعلان عنها، إذ ليس في القرآن ما يجب إخفاؤه، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾(المائدة:٦٨)، ولكن الظروف تحتّم بعض الأحيان نشْر مواضيع بعض السور على نطاق واسع، فلذلك يتم التركيز على إعلانها خاصة. وهناك خمس سور في القرآن الكريم تستهل بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾، وهي: سورة الجن، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس، إضافةً إلى نحو ٣٠٦ آيات* تستهلّ بلفظ ﴿قُلْ﴾؛ وفي كل مكان ورد تأكيدًا لأهمية الموضوع المذكور هنالك، ولو أمعنّا النظر في كل تلك السور والآيات لانكشف علينا موضوع رائع لطيف حتمًا، لكن لا مجال للخوض في ذلك الآن، وإنما يكفي القول هنا بأن لفظ ﴿قُلْ﴾ قد ورد هنا لتبيان أهمية الموضوع المذكور هنا والإعلان عنه، لا ردًّا على سؤال سائل كما يظن البعض.

---

* هكذا ورد في الأصل، ويظهر أنه سهو، إذ إن عدد الآيات التي وردت فيها كلمة ﴿قُلْ﴾ هو ٣٠٧ آيات، بينما تكررت كلمة ﴿قل﴾ مع لواصقها ٣٣٢ مرة. (المترجم)

والحكمة في استهلال السور الأخيرة في القرآن بكلمة ﴿قُلْ﴾ هي أن القرآن الكريم كان على وشك الختام، فقدّم الله تعالى فيها ملخص القرآن مركِّزًا على أهمية نشر مضامينها خاصة، لكي يطّلع الناس من خلال هذا الملخص على مضمون القرآن كله بشكل مجمل.

وهناك سؤال آخر يجب الرد عليه وهو: لا جرم أن الله تعالى حين خاطبَ رسوله، كان استعمال كلمة ﴿قُلْ﴾ مناسبًا، ولكن عندما قرأ نبيه ﷺ هذا الوحي على مسامع الناس، فما الفائدة من الإبقاء على هذه الكلمة؟ كان ينبغي أن يبدأ الوحي بـ ﴿قُلْ﴾ عند نزوله على الرسول ﷺ، أما أن يضاف هذا اللفظ في الوحي القرآني المتلو فهذا لا يبدو مستساغًا. أليس غريبًا أن يقول المرء ﴿قُلْ﴾ عند البدء بقراءة هذه السورة؟ فمَن الذي يقول له: ﴿قُلْ﴾؟ لذا، كان الأَولى حذف هذه الكلمة في الوحي القرآني المتلوّ!

والجواب هو ما ذكرتُ آنفا بأن لفظ ﴿قُلْ﴾ قد ورد قبل المواضيع أو السور التي قد حثَّ الله بالإعلان عنها بين الناس على أوسع نطاق. والواضح أن شخصًا واحدا لا يقدر على الإعلان عن أمرٍ ما على نطاق واسع، وإنما يقدر عليه جماعةٌ من الناس نسلاً بعد نسل، حتى تصل هذه الرسالة إلى كل قوم وبلد وفي كل عصر. فلو لم يوضع لفظُ ﴿قُلْ﴾ في الوحي المتلوّ.. أي المصحف.. لتمّ هذا الإعلان في حياة الرسول ﷺ بلسانه و لم يستمرّ بعده. أما بعد الإبقاء على هذا اللفظ في وحي القرآن الكريم، فسيتم هذا الإعلان باستمرار إلى يوم القيامة. عندما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون﴾.. أي: لم ولن أعبد آلهتكم قطعًا، قام ﷺ بهذا الإعلان بينهم امتثالاً لأمره ﷻ، ولكن لولا كلمة ﴿قُلْ﴾ في القرآن الكريم، لظنّ المسلمون أن هذا الإعلان كان من واجب الرسول ﷺ، وقد قام به وانتهى الأمر، ولكنه ﷺ لما قرأ عليهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، أدرك كل منهم أن هذا الأمر الرباني لا يخص الرسول ﷺ وحده، بل

يخصّه أيضا، لأنه لما قُرأ عليه هذا الوحي قائلا: ﴿قُلْ﴾، صار كل مسلم أوّلَ المخاطَبين بـ ﴿قُلْ﴾، وليس محمد ﷺ وحده، فهو القائل، والمسلم هو السامع، فقام هذا المسلم بنشر هذه الرسالة إلى غيره عملاً بهذا الحكم الرباني، وهذا الآخر لما سمع من الأول لفظ ﴿قُلْ﴾، نقل هذه الرسالة إلى الثالث قائلا له: ﴿قُلْ﴾، لأن هذا اللفظ جزءٌ من الوحي ولا يمكن تركُه، وهكذا لم يزل هذا الأمر ينتقل من الثالث إلى الرابع فالخامس والسادس وهلمّ جرّا، عملاً بقول الله ﴿قُلْ﴾، وهكذا جعل الله تعالى هذا الإعلان يتكرر باستمرار إلى يوم القيامة. فانظرْ إلى الفائدة العظمى من إبقاء لفظ ﴿قُلْ﴾ في المصحف. عندما يقرأ المرء سور القرآن الأخرى فلا شك أنه يتلقى الرسالة الموجودة فيها، ولكنه عندما يقرأ سورة أو آية تُستهلّ بكلمة ﴿قُلْ﴾، فيدرك أن عليه تبليغ ما فيها من رسالة إلى الآخرين أيضا، فيعمل بها، كما ينصح الآخرين بالعمل بها، ويحثّ السامعَ أن يبلّغها غيرَه باستمرار.

ألا تدل هذه الحكمة الكامنة في كلمة ﴿قُلْ﴾ على خطأ مَن قالوا بأن الله تعالى أراد بها أن يأمر رسوله ﷺ بتبليغ هذا الكلام للناس، ففعل، فما الفائدة بعد ذلك من بقاء ﴿قُلْ﴾ في المصحف؟ الواقع أنه لولا ضمّ كلمة ﴿قُلْ﴾ إلى الوحي المتلو لما تحققَ هدف الإعلان العام بدون انقطاع، ولما أمكن تبليغ هذه الرسالة باستمرار. ولقد اتّبع النبي ﷺ هذا الأسلوب الخاص لتحقيق هدف الإعلان المستمر في حجه الأخير الذي يسمى حجة الوداع، حيث قال لصحابته في نهاية خطبته في منى: "أَلا لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ. ثُمَّ قَالَ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ (مسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء). فقال ﷺ بأن من واجب كلّ حاضرٍ أن يبلّغ رسالته كلَّ غائب، لأن الذين يأتون فيما بعد يكونون أحيانا أدرى بأهمية الأمر والعمل به. وفي هذه الأيام أيضا نجد أن بعض الناس يبعثون رسائل من دون ذكر أسمائهم راجين من الطرف الآخر نقْلَها إلى عشرة أشخاص آخرين على الأقل، فيعمل البعض بنصيحة المرسِل، وهكذا تنتشر فحوى الرسالة في البلد كله. لا شك أن هذا الأسلوب متّبع في نشر كثير من الأمور السخيفة، إلا أنه طريق رائع للنشر والإعلان، ففي الإبقاء على كلمة ﴿قُلْ﴾

في بداية بعض السور والآيات قد حثّ الله على اتّباع الأسلوب نفسه، مما يعني أن القرآن هو أول من ابتكر هذا الطريق للإعلان العام المستمر.

والآن أتناول الجزئية الثانية من هذه الرواية؛ وهي أن العرض الثاني الذي عرضه الكافرون على النبي ﷺ هو أن يعبد آلهتهم سَنَةً، وهم يعبدون إلهه سنة.

هذا الكلام أيضا يكشف أن أحدا قد خلط هنا أمرين بلا مبرر، لأن القاعدة أنك إذا اقترحت على الخصم أمرين فلا بد أن يكون الاقتراح الثاني أسهل وأخفّ، لأنك تعني: إذا كنتَ لا تقبل العرض الأول لكونه صعبًا، فخذ الثاني فهو أسهل؛ ولكن لا يخفى هنا أن ما عرَضه الكفار على النبي ﷺ أولاً كان أفضل؛ إذ لم يطالبوه بعبادة آلهتهم، بل عرضوا عليه أموالهم وبناتهم وسيادتهم شريطة ألا يشتم آلهتهم، وكان المنطق والعقل يحتّم أن يكون عرضهم الثاني أكثرَ إغراء، ولكن الواقع أنهم لم يعطوه شيئًا في العرض الثاني، وإنما عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه، مع أنهم كانوا يؤمنون به ويعبدونه سلفا، وبالمقابل طالبوه بما هو أشدّ، إذ لم ينهوه عن شتم آلهتهم، بل بعبادتها أيضا؛ مما يعني أن العرض الثاني بجُزْأَيْه كان أقسى وأصعب. إذن، فاعتباره عرضًا متبادلا غايةٌ في الحمق. وما دام النبي ﷺ قد رفض عرضهم الأول بشدة من قبل بكلماته التاريخية بأنهم لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره، فلن يتخلى عن عبادة الله الأحد ولن يعبد آلهتهم، فمن غير المعقول أن يتجاسروا بعده على أن يعرضوا عليه فورًا العرض الثاني الأصعب. وعليه، فلا بد من القول أن ابن عباس كان قد ذكر أمرين مختلفين يتعلقان بمناسبتين مختلفتين، ولكن الراوي خلَطهما وذكَرهما معًا ساهيًا، أو أن الراوي الساذج سمع من الناس روايتين مختلفتين، فجمَعهما ثم نسبهما إلى ابن عباس.

لقد ورد في هذه الرواية أن الكفار عرضوا على النبي ﷺ المال والنساء والسيادة على أن لا يشتم آلهتهم، فعلينا أن نرى هل كان قولهم هذا صحيحًا؟ أعني هل كان الرسول ﷺ يشتم آلهتهم فعلاً؟

تكشف دراسة القرآن لنا أنه ﷺ لم يشتم الآلهة الباطلة أبدا، بل كان ينهى أتباعَه عن سبّها. قال الله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا

بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(الأنعام: ١٠٩)، أي: أن المرء إذا استُفِزَّ فلا يبالي عند الجواب ما إذا كان ينقض مسلّماتِه أيضا، بل يجيب في ثورة الغضب بما يمثّل هجوما على الطرفيْن، فإذا قمتم، أيها المسلمون، بسبِّ مَن يعتبرهم الكفارُ آلهةً، فسوف يثورون غضبًا ويسبّون إلهكم، مع أن إلهكم وإلههم واحد؛ لا شك أن تصرّفهم هذا سيكون دليلاً على جهلهم، إلا أنكم أنتم الذين تتسببون في سبّ إلهكم، فلا تسبّوا آلهتهم.

فثبت أن الرسول ﷺ لم يكن يشتم آلهتهم، بل إن الكتاب النازل عليه ينهى عن سبّها.

والسؤال هنا: لماذا كان الكفار يقولون إنه يشتم آلهتنا؟

والجواب أنه إذا ادعى المرء كذبًا بأن فلانًا يتبوأ منصبًا عاليًا كذا، فلا يمكن إبطال ادعائه إلا بنفي الخصائص والمزايا الضرورية لصاحب ذلك المنصب؛ فمثلا إذا قيل عن شخص كذبًا أنه طبيب، فلا بد أن نثبت أنه لم يتخرج من كلية الطب، ولا يعرف من العلاج والتداوي شيئا، وإذا فعلنا ذلك فلا بد أن نحطّ من شأنه، ولكن هذا لا يُعتبر سبًّا، لأن ما قلناه إنما قلناه من أجل الضرورة وتدليلاً على صحة موقفنا، إذ لا مناص من إبطال دعوى الخصم إلا بهذا الطريق. كذلك فإن القرآن الكريم قد وصَم آلهتهم الباطلة بما فيها من عيوب ونقائص، مما يدل أنها ليست آلهة، إذ لا يمكن إثبات بطلانها إلا بهذا الطريق. فالحق أن قولك شيئا لإبطال دعوى الخصم والتي لا يثبت بطلانها إلا بذكره، ليس سبًّا ولا شتمًا، بل هو بيان لواقع الأمر. أما إذا قلتَ ما يتنافى مع الحقيقة و لم يكن ذكره ضروريًا لإبطال دعوى الخصم، وقصدت به تجريح مشاعره بلا مبرر، فهو السب والشتم بلا شك. ولكن القرآن لم يستعمل أي كلمة كهذه بحق آلهتهم الباطلة.

وفي عصرنا هذا قد اتّبع مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام الأسلوب نفسه، فنبّه بعض المشايخ والعلماء المعارضين إلى أخطائهم وعيوبهم، ولكن أتباعهم يثيرون اليوم ضجةً مغرورين بكثرتهم بأن هذا قد سبَّ العلماء أو المسلمين. والحق أن حضرته عليه السلام لم يتعرض للعلماء والمسلمين و لم يسبّهم، وإنما قال ما قاله ضد

أولئك العلماء والمسلمين الذين افتروا عليه وظلموه واعتدوا عليه، وكالوا له السباب والشتائم. ثم إنه لم يقلْ إلا ما وافقَ الأمرَ الواقع. لقد استعملَ حضرته عليه السلام لبيان هذا الواقع المرّ كلمات مجازية قد استعملَها بعض صلحاء الأمة أيضا على هذا النحو، ولكن المشايخ الجهلاء المفسدين يعرِضونها على الناس بشرح خاطئ لإثارتهم واستفزازهم، غير أن الذين لهمْ إلمامٌ بالتراث الإسلامي وأقوال صلحاء الأمة واللغة العربية، فهم يعلمون أن هذه الكلمات قد وردت استعارة ومجازا، وقد استُعملت لإصلاح الطبائع الزائغة كما يستعمل الطبيب مشرطه لعلاج بعض المرضى.

ت: لقد اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافا عجيبا، فقال القرطبي وغيره أن البعض قال: إن قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون﴾ يعني: "قُلْ للذين كفروا: لا أعبد ما تعبدون"، وزعم أن ذلك هو الصواب. وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله مِن أن يذلّ نبيُّه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزريّ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لب وحِجا." (الجامع لأحكام القرآن)

ويقصد القرطبي وغيره من المفسرين الذين يتبنون هذا الرأي أن جملة: "قل للذين كفروا" تعني أن الرسول ﷺ لو قال لشخص أو خطَب في مجلس بهذا الحكم فقد نفَّذ أمر الله، أما جملة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فالمقصود منها أن يدعو الكافرين هؤلاء في مجلسه، ثم يقوم بزجرهم وتوجيه اللوم لهم.

فيما يتعلق بالقراءة فلا مجال للنقاش فيما إذا كان الوارد في القرآن الكريم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، أم "قل للذين كفروا"، إذ لا أعرف أي قراءة أخرى غير ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و لم أعثر على أي قراءة أخرى في كتب القراءات. فالحق أن الذي قال أن المعنى: "قُلْ للذين كفروا"، إنما استدلّ بأن قول الله هذا يعني فقط أن يُبلِّغَ الكافرون هذا الأمر، وليس أن يَدْعوهم في مجلسه ليذلّهم ويهينهم، أما الذين

ركّزوا على كلمات ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإنما يعنون أن لفظ "أَيُّ" هنا للتنبيه، أي للتأكيد على أن يوضّح هذا الأمر للكفار، أو يكشف عليهم موقفهم غير المعقول.

وعندي أن هذا النزاع مجرد نزاع لفظي لا يبنى عليه فائدة؛ لأن المفهوم الحقيقي مذكور في الآيات اللاحقة، وفيه تنبيه وتأكيد أيضا، وهذا المفهوم يمكن أن يوصله الرسول ﷺ إلى الكافرين سواء باستدعائهم إلى مجلس أو من دون استدعائهم. أما التأكيد الموجود في العبارة فلا يمكن إنكاره، لأن الذي بلّغتَه بأنك لا تعبد ما يعبد، ولا يعبد ما تعبد، فهذا محال ألبتة، فلا يحتاج إلى أيّ زجرٍ أشدّ من ذلك؟

لا شك أن كلمة ﴿يَا أَيُّهَا﴾ تفيد التأكيد، ولكن ليس في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولا في عبارة: "قل للذين كفروا" ما يدل على الاحتقار ولا الإساءة. ولا يسيء إلى المرء ما يقوله الناس عنه، وإنما تصرفاته هو تسبّب له الإساءة والاحتقار. وما دام الله تعالى قد ذكر هنا أفعال وعقائد الفريقين، فقد تبينَ بذلك حُسْنُ عقائد المسلمين وشناعةُ عقائد الكافرين تلقائيا، فبِضدِّها تتبيّنُ الأشياء.

لم يفكر هؤلاء المفسرون أنهم أنفسهم يُضعفون مفهوم هذه الآية بتضييق معانيها بقولهم أنها خاصة بأفراد مخصوصين من كفار مكة، فإذا كان هذا هو كل ما فيها من مفهوم، فأين المعنى الإضافي الذي يقال عنه أنه لا يمكن أن يفعله عاقل؟ كل ما قيل للكفار هنا هو: لا تعبدون الإله الذي أعبده، ولا تتّبعون طريقة العبادة التي أتّبعها، فما هو المعنى السيئ هنا حتى قيل أن العاقل لا يتصرف هكذا؟ يجب أن يذكروا ما في هذه السورة من مفهوم مسيء إلى الكفار. هل يُستنبط من قوله تعالى ﴿أيُّها﴾ فقط، أيُّ مفهوم سيئ؟ أقول لهؤلاء المفسرين: لقد صرتم بأنفسكم عائقًا في استنتاج أي مفهوم آخر –سيئ أو حسن– من هذه الآية، إذ قلتم بأن الخطاب هنا لأفراد معينين من الكفار، وبالتالي حصرتم مفهوم هذه السورة جدًّا وكأنه ليس أكثر من الآتي: "أيها الكافرون القلائل، لا تستمعون لي ولا أستمع لكم، ولكم دينكم ولي دين." أين في هذا المفهوم دليلٌ عقلي يثبت غباء الكفار وحماقتهم؟ هذا هو السبب في أني قد ركّزتُ بإطناب وإسهاب على قولي بأن مفهوم هذه السورة

ليس مخصوصًا بقلّة من الكفار المخصوصين كما ظن المفسرون، إذ الأخذ بما أقوله هو ما يوجّه أنظارنا إلى المضمون الحقيقي لهذه السورة وسعة معانيها.

وفيما يتعلق بقوله تعالى ﴿أيُّها﴾، فليكنْ معلومًا أيضًا أن التنبيه في العربية لا يعني الزجر من شيء سيئ، وإنما يعني التذكير ولفت النظر للشيء. لقد وردت كلمة ﴿يا أيُّها﴾ في القرآن عشرات المرات، وقد خوطب بها المجرمون والمؤمنون والمعارضون والناس كلهم والرسل والأنبياء، مما يدل أنه ليس فيها أي مفهوم للزجر والتوبيخ، بل تُستعمل للتنبيه ولفت النظر فقط. ويتم تنبيه الأنبياء والمؤمنين والمجرمين والكافرين والناس جميعا أيضا، ثم يتم تنبيه المرء في محل الحب والغضب أيضا، فمثلا قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(الأحزاب:٤٦)، فهذا محل الحب وليس الزجر، وإنما نبّه الله تعالى رسولّه ﷺ إلى عظمة نعمته عليه. كذلك قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(المائدة:٤٢).. والتنبيه هنا في محل الشفقة وليس التوبيخ والزجر.

لقد ثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لا يتضمن أي معنى من الزجر والتوبيخ أو التحقير، وإنما يبين أهمية الأمر. وأي شك في أن قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يعني: أيها الكفار، إن الموضوع الذي نلفت أنظاركم إليه هام جدًّا؟ ولكن من سوء حظنا أن هؤلاء المفسرين يصفون المفهوم الذي يقول الله إنه بالغُ الأهمية بأنه ينحصر في العبارة التالية: "أيها الكافرون، إني لا أستمع لكم ولا تستمعون لي، ولكم دينكم ولي دين". ما هو المهمّ في هذا المعنى؟! يجب أن يكون هناك دليل يبين السبب وراء ما قيل لهم بأننا لم ولن نستمع لكم، و لم ولن تستمعوا لنا، ثم يجب أن تُذكر هنا نتائج هذه الدعوى، وعندها تنكشف أهمية هذا الادعاء. ولكن المفسرين بتحديد مضمون هذه السورة وتضييق معناها قد حالوا دون هذه الأمور الثلاث.

ثم قال الله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

اعلمْ أن موضوع هذه السورة يجعلُ تفسيرَها آيةً آيةً أمرًا صعبا، بل لو حاولْنا تفسير آياتها هكذا اختلّ موضوعها، أو على الأقل لا أقدر أنا على تفسيرها آيةً آيةً مع المحافظة على الارتباط الموجود بينها. فأيًّا كان السبب، فإني مضطر لبيان تفسير آياتها كلها معًا هنا.

لقد تناولتْ هذه السورةُ موضوعًا واحدا بأسلوبين، وأعادته مرتين، فأولاً قال الله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، ثم قال: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.. فالموضوع نفسه قد أُعيدَ -في الظاهر- مرة بالكلمات نفسها، وأخرى بشيء من التغيير في الكلمات. والحق أن لا تكرار في القرآن، فلماذا فعل الله هكذا يا ترى؟

وأجاب المفسرون بثلاثة أجوبة في تبرير هذا التكرار. أولاً: قال الذين بنوا تفسيرهم على الروايات بأن الكافرين قد قدّموا سؤالهم بشكلين، فجاء الرد عليهم مرتين. وثانيًا: هذا التكرار يفيد التأكيد ودفع مطامعهم. ثالثا: أن الجملتين الأوليين تنفيان العبادة في الحال، أما الجملتان الأخيرتان فتنفيان العبادة في المستقبل. هذا قول الثعلبي والزجاج (الجامع لأحكام القرآن، وفتح البيان).

ولكن الزمخشري خالفَ هذا الرأي الأخير وقال: إن قوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتعلق بالمستقبل، لأن "لا" حرفٌ لا تدخل على المضارع إلا إذا أفاد الاستقبال، لذا فالحق أن الجملتين الأوليان -لا الأُخريين- تنفيان العبادة في المستقبل، والجملتان الأُخْريان -لا الأُوليان- تنفيان العبادة في الماضي.

وقد فنّدَ خصوم الزمخشري قوله بقولهم أن اسم الفاعل -كما هو في قوله تعالى هنا: ﴿عابد﴾ و﴿عابدون﴾- يعمل عمل الفعل، فلا يفيد إلا الحال والاستقبال، فقوله تعالى ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لا يتعلق بالماضي بل يتعلق بالحال والاستقبال (البحر المحيط).

وقد رد عليهم أنصار الزمخشري أنه إذا كان الكلام حكاية، فيجوز أن يدلّ اسم الفاعل على الماضي، كقوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصِيدِ﴾.. فهذا الكلام عن الماضي وليس عن المستقبل ولا الحال.

وقد اعترض عليه البعض قائلا: لقد قال الله هنا أولاً: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، ثم قال في الجواب: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، حيث جاء ﴿أَعْبُدُ﴾ وهو المضارع إزاء ﴿عَبَدْتُم﴾ وهو الماضي، مما يعني أن المقصود هنا ليس الماضي (البحر المحيط).

وقد قال أنصار الزمخشري هنا أن سبب ذلك أن الكافرين كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثته ﷺ، أما هو فبَدَأَ عبادة الله تعالى بعد البعثة، فلذلك استعمل الله لهم صيغة الماضي بينما استعمل للنبي ﷺ صيغة المضارع (روح المعاني، وروح البيان).

فردَّ عليهم خصومهم بأن العبادة لا تعني هنا الصلاة الإسلامية التي نصلّيها، وإنما العبادة في أصلها هي توحيد البارئ تعالى، وكل الأنبياء كانوا موحدين قبل بعثتهم بما حباهم الله مِن عقل وفراسة؛ فلا يصحّ القول أن الله تعالى استخدم للنبي ﷺ كلمة ﴿أَعْبُد﴾ التي تدل على الحال لأنه لم يكن يعبد الله تعالى قبل بعثته، كلا بل إن النبي ﷺ كان قبل بعثته أيضا يعبد الله تعالى الأحد بالمفهوم العام للعبادة، أي الإقرار بوحدانيته والإصرار عليها. فإذا كان الكافرون يعبدون الأصنام قبل بعثته ﷺ، فقد كان النبي ﷺ يعبد الله الأحد قبل بعثته، وإنْ كان شكل عبادته مختلفًا عن الصلاة الإسلامية؛ فاختلاف شكل العبادة لا يُخرِجه عن نطاق العابدين لله وحده؛ فكانت صلاة عيسى وموسى ونوح ومحمد ﷺ مختلفة شكلا، ومع ذلك نقول إنهم جميعا كانوا يعبدون الله تعالى.

إن تفسيرات المفسرين هذه تجعل الموضوع يشْكل على القارئ جدًا، فلا يَتوصل منها إلى حقيقة الأمر. لذا أذكر فيما يلي ما أراه بهذا الصدد:

اعلمْ أن حرف "لا" إذا دخلت على المضارع أفاد الاستقبال عند أئمة اللغة والأدب، إلا ابن مالك الذي يرى أن هذا ليس ضروريًا في كل حال، وقد استدلّ على ذلك بقول العرب: "جاء زيد لا يتكلم" (أقرب الموارد)، فهو يرى أن كلمة "لا يتكلم" تفيد هنا الماضي.

والحق أن ما يقوله ابن مالك إنما هو مجرد استثناء في القاعدة، فالمثال الذي ذكره مشروط بشروط، أوّلُها: أن "لا" قد دخلت هنا على فعل هو تتمة للجملة السابقة.

ثانيا: أنه قد سبقه فعل الماضي الذي يدل على الحال معنًى، وإن لم يكن يدل على الحال لفظًا.. أي أنه يتعلق بالحالة التي كان فيها عندئذ لا قبْله. وعليه، فهذا الاستعمال لا يفنّد القاعدة، بل نقول: إذا دخلت "لا" على المضارع مع بعض الشروط أفاد الحال أيضا، أما إذا دخلت على المضارع من دون قيود أفاد الاستقبال دائما، وعليه فقوله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ﴾ يعني أنني لن أعبد آلهتكم في المستقبل أيضًا.

والحرف الثاني الوارد في هذه الآيات هو "ما"، وهي تفيد عدة أغراض منها: أنها تأتي نافية، واسمية.. أي موصولة. والموصولة تُستعمل لغير ذوات الأرواح، وقد تستعمل لذوي العقول أي للناس والملائكة ولله تعالى، وتعني عندها "مَن"، التي تُستعمل للعاقل عادة. كما تكون "ما" مصدرية وذلك إذا دخلت على الفعل كقول الله على لسان المسيح: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.. فقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يعني: طوال حياتي. وكذلك تقول العرب: لا أصحبكم مَا دُمْتُ حَيًّا.. أي حياتي كلها.

أما "ما" الواردة في قوله تعالى ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ و﴿مَا أَعْبُدُ﴾ و﴿ما عَبَدْتُمْ﴾ و ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ فيمكن أن تكون مصدرية أو موصولة، وإذا اعتبرناها موصولة هنا، فقد تكون لذوي العقول وغير ذوي العقول أيضا؛ وعليه فقوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: لن أعبد الأشياء التي تعبدونها، سواء كانت من ذوي العقول أو من غير ذوي العقول؛ أو المعنى: لن أعبد بالطريقة التي تعبدون بها؛ وهي هنا مصدرية.

أما قوله تعالى ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فيكون معناه: لا يمكنكم أن تعبدوا، أو لا تريدون أن تعبدوا ذلك الإله الذي أعبده؛ أو المعنى: لن تعبدوا أو لا يمكنكم أن تعبدوا بالطريقة التي أنا أعبد بها.

وأما قوله تعالى ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ فسيعني: ولا أنا أنوي، أو لا أستطيع أن أعبد مَن تعبدونه أو كنتم تعبدونه.

أما قوله تعالى ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فيكون معناه: ولا أنتم يمكنكم أن تعبدوا، أو لا تنوون عبادة مَن أعبده، أو بالطريقة التي أنا أعبد بها.

ولو طبقنا هذه المفاهيم المختلفة على هذه الآيات الأربع لوجدنا في الآيتين الثانية والرابعة تكرارًا في الظاهر، أما الآية الأولى والثالثة فلا يوجد فيهما تكرار لاختلاف كلماتها. وحيث إن كلام الله تعالى منـــزّهٌ عن أي تكرار غير هادف، فنقـــول إن "ما" هنا موصولة ومصدرية أيضا، فقد استعملها الله تعالى موصـــولةً في الآيـــتين الأُوليين، ومصدريةً في الأخيرتين، توسيعًا لمعاني السورة، فهكذا لا يبقى هناك أي تكرار. ويكون معنى هذه الآيات كالآتي:

لن أعبد مَن تعبدونه، ولن تعبدوا ولا يمكن أن تعبدوا مَن أعبد. ولن أعبـــد ولا يمكن أن أعبد بالطريقة التي تتعبدون بها، ولن تعبدوا ولا يمكن أن تعبدوا بالطريقة التي أتعبد بها أنا.

هذا المفهوم يزيل كل تكرار، مع بقاء كل كلمة في مكانها ومع انكشاف هدفها وغرضها.

هذا المفهوم الذي بينته الآن واضح تمام الوضوح من حيث الكلمات العربيـــة، وكان من المفروض أن ينكشف على المفسرين الأوائل، ولكن لم تنتقل أذهانهم إليه لأن مفهومًا خاصا كان قد سيطرَ على عقولهم. وإن مفخرة تبيان هذا المعنى راجعةٌ إلى أبي مسلم الأصفهاني، حيث طبّق هنا قاعدة نحوية واضحة وأزال بها إشـــكالية التكرار، وأخرج مفهوم هذه السورة من وراء الحجب (البحر المحـــيط، وإعـــراب القرآن لأبي جعفر النحّاس).

إنه نفس الرجل الذي يُرمى بالردة والزندقة، ولكن يُنسب إليه أحيانًا تفاســـير للقرآن الكريم تجعل المرء يشكّ فيما يُرمى به، ويقول: لعلّ رداء التعصب أخفـــى إيمانه عن الأعين. إنه هو الشخص الوحيد بين القدامى الذي أنكر وجود النسخ في القرآن الكريم. لا شك أنه قام بمجرد دعوى عدم وجود النسخ في القرآن الكـــريم (الرازي، قوله تعالى: ما ننسخ من آية...)، فهو يماثل السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة "عليكره" في دعواه بوفاة المسيح عليه السلام، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد برهن على عدم وجود النسخ في القرآن الكريم بأدلة قاطعة، كما أثبت وفاة المسيح عليه السلام ببراهين ساطعة (الحق: "مباحثةُ لدهيانه"، الخـــزائن الروحانيـــة ج٤ ص ٩٢-٩٣

وإزالة أوهام، الخزائن الروحانية ج٣ ص٤٢٣- ٤٣٥). فيمكننا القول أن أبا مسلم والسير أحمد خان قد أصابا كبد الحقيقة في هاتين القضيتين بمساعدة ضوء نجم الفجر، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد أضاء لنا الشمسَ بعينها، فجزاه الله خيرًا عن المسلمين والناس أجمعين، وأخزى أعداءه ومعانديه.

لقد ذكرت من قبل أن الرسول ﷺ قد قال إن سورة "الكافرون" تعدِل رُبْعَ القرآن، وهو قول عجيب في الظاهر، إذ كيف يمكن أن تساوي سورةٌ لا تتجاوز بضع آيات صغيرة رُبْعَ القرآن؟ إن هذا لا يعني قطعًا أنها تساوي ربع القرآن حجمًا، إنما المراد أنها تشتمل على مفاهيم بالغة الأهمية جعلتْها تساوي ربْعه. والتفسير الذي سوف أبيّنه لاحقًا سوف يؤكد أن هذه السورة الوجيزة تحوي بالفعل معارف واسعة جدا، و لم يبالغ الرسول ﷺ حين اعتبرها رُبْعَ القرآن. وإضافةً إلى احتوائها على مفاهيم بالغة الأهمية، فلها خصوصيات أخرى أيضا لا توجد في سور أخرى، ومنها:

أولاً: أن ما ورد في بداية هذه السورة مرتبط تماما مع موضوع السورة السابقة.. الكوثر.. بحيث ليس هناك في القرآن سورة أخرى يمكن أن تُعتبر أوائل آياتها نتيجةً لجميع مضامين السورة السابقة. إن سورة الكافرون وحدها تتميز بهذه الخصوصية.

ثانيًا: أن مضامين السورة التالية لها ..سورة النصر.. كلَّها قد جاءت دليلا على ما تدّعيه هذه السورة؛ وهكذا فإن السورة السابقة للكافرون والتالية لها كلتيهما جاءتا دليلاً على صدق دعاويها.

ثالثًا: ثم إن آخر آية من سورة "الكافرون" جاءت أيضا دليلاً على دعاويها هي كما سنبين لاحقا.

هذه خصوصيات تتميز بها هذه السورة دون غيرها من السور، وبالتالي لا جرم أنها رُبْعَ القرآن، وهي حقيقة يمكن أن يدركها كل إنسان.

سأقوم الآن بشرح هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

يقول الله تعالى في هذه السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.. أي: أيها الكفار لن أعبد أنا ولا أتباعي الأصنامَ التي تعبدونها، ولن أتعبد أنا ولا أتباعي بالطريقة التي تتعبدون بها، ولن تعبدوا الإله الذي أعبده أنا، ولن تعبدوا بالطريقة التي أتعبد بها أنا.

هذه الدعوى تنمّ -على ما يبدو- عن استعلاء واستكبار لا يتفق وقداسة القرآن الكريم، إذ نقرأ فيه أن شعيبًا عليه السلام لما هدده معارضوه بأنهم سيعيدونه في ملّتهم أجابهم: ﴿ومَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾(الأعراف:٩٠).. أي لن نرتدَ عن ديننا إلا أن يشاء الله، فما قيل هنا في سورة "الكافرون" يتنافى مع سنة شعيب عليه السلام على ما يبدو، إذ قيل هنا: من المحال قطعًا أن أعبد أنا أو أتباعي آلهتكم، أو نتعبد بطريقة عبادتكم، ومن المستحيل أيضا أن تعبدوا إلهي وتتعبدوا بطريقة عبادتي.

وفيما يتعلق بأحداث التاريخ، فصحيح أن الصحابة لم يعبدوا الأصنام، ولم يتعبدوا بطريقة عبادة الكفار، ولكن الجزئية الثانية من هذه الدعوى لا تتفق مع شهادة التاريخ، لأن آلاف الكافرين آمنوا بالله الأحد وعبدوه وتعبّدوا بطريقة عبادة المسلمين. فهذا المعنى باطلٌ على ما يبدو، وقد حاول المفسرون دفْع هذا التناقض فقالوا بأن هذه السورة إنما تتحدث عن رؤساء الكفار. ولكن هذا خطأٌ كما سبق أن بينت من قبل في تفسير هذه السورة. الحق أن هذه الآيات تبيّن موضوعا آخر، إذ يتحدث الله تعالى هنا عن فطرة المسلمين والمشركين، ويخبر أن المسلمين مائلون إلى التوحيد بفطرتهم، وأن الكافرين قد أصبحت فطرتهم ممسوخة مشوهة لطول عملهم بتقاليدهم وطقوسهم الوثنية، فأصبحت فطرتهم وثنية مشركة؛ فلا يميلون إلى التوحيد، وإنما إلى الشرك.

لقد قال الله تعالى في سورة الكوثر لرسوله ﷺ: يا محمد، قد أعطيناك الكوثر، أي أكثرَ الكثيرِ، في الدين والدنيا؛ وهذا الأمر ذو علاقة بالفتوحات الروحانية والمادية، حيث أخبره الله تعالى أنَّ نسله ﷺ.. أي التابعون حقًا لدينه.. سوف

يوجدون في كل زمان إلى يوم القيامة، وهذا في الواقع هو نفس الموضوع الذي قد بيّنه الله تعالى في قوله ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. أي أن أتباعه ﷺ المتبرئين من الشرك سيظلون موجودين إلى يوم القيامة. فثبت من ذلك أن إعلانه ﷺ: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليس من قبيل الاستكبار والاستعلاء، إنما هو إشارةٌ إلى البُشرى التي زفَّها الله تعالى لرسوله في سورة الكوثر، وهو لا يتنافى مع سنة شعيب عليه السلام بل مطابق لها تماما، لأن شعيبا إنما قال إني لن أحيد عن سبيلي إلا أن يشاء الله.. أي لن أتخلى عن ديني ما دامت مشيئة الله تعالى تطالبني بالثبات عليه، أما نبينا ﷺ فكان قد أُخبرَ بالمشيئة الإلهية في سورة الكوثر، وهي أنه وأتباعه سيظلون متمسكين بالتوحيد دائما؛ إذن، فقوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ تفسير لهذه المشيئة الإلهية، وأن سورة الكوثر هي الأساس لهذه الدعوى.

ثم أخبر الله تعالى رسوله في آخر سورة الكوثر: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي أن ذرية أعدائك لن يعودوا ذرية لهم.. أي أنهم يقطعون عنهم صلتهم الروحانية ويدخلون في دين محمد ﷺ. وهذا المعنى يبدو متعارضًا مع الإعلان الوارد في قوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لأن أولاد الكفار إذا دخلوا في الإسلام وأصبحوا أبناءً روحانيين للرسول ﷺ، فلا بد أن يتعبدوا بطريقة عبادته، كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وأبو سفيان نفسه. فالحق أن إسلام كفّار مكة لم يُبطل النبوءة القرآنية الواردة في قوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لأنهم لم يسلموا بإرادتهم، بل الله تعالى دفعهم إلى الإسلام بقدرته تحقيقًا لنبوءته ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، فإسلام هؤلاء لا يتنافى مع هذه الدعوى القرآنية بل هو تصديق لها.

أما ما قلت بأن سورة النصر -وهي التالية لسورة "الكافرون"- تشكّل دليلا على الدعوى التي تمت في أوائل سورة "الكافرون"، فأشرح هذا الأمر فيما يلي:

قال الله تعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وإن قوله تعالى هذا هو في الواقع دليل على صدق قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا

أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ ذلك أن الله تعالى إذا كتب الغلبة لمحمد ﷺ على أعدائه مع ضعفه وقلة حيلته، وأدخل أفواجًا من العرب في الإسلام، فكيف يمكن لمسلم بعد رؤية هذه المعجزة البينة أن ينضم إلى الكفار؟ هذا من الناحية الروحانية، أما من الناحية المادية، فالقاعدة أن الإنسان لا ينضم إلى أي فئة إلا بسبب بعض المصالح، وما دام الإسلام قد انتصر وأصبح الكفار تابعين للمسلمين، فأيّ غبي من المسلمين سينضم بعد ذلك إلى الكافرين المقهورين المغلوبين تاركًا الغالبين الفاتحين؟ فثبت أن سورة الكوثر وكذلك سورة النصر تشكّلان الدليل على صدق ما أُعلنَ في أوائل سورة "الكافرون" في قوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

كما أن سورة النصر تزيل الإشكال الذي يحصل في الظاهر من قوله تعالى﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، حيث تبين أن الكافرين كانوا قائمين بالشرك بسبب فطرتهم الممسوخة، ولكن عند انكشاف صدق الإسلام نتيجة غلبته، ساقَتْهم الظروف إلى حظيرة الإسلام، فإسلامهم لم يكن تكذيبًا لقوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، بل كان تصديقًا لسورة الكوثر وسورة النصر وسورة الكافرون كلها.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

دينكم: الدين يعني: ١- الطاعة؛ ٢- السلطان والمُلْك والحُكم؛ ٣- السيرة؛ ٤- التدبير؛ ٥- اسمٌ لجميع ما يُعبد به (فأداء المسلمين للصلاة والحج والزكاة بنصاب معين من أموالهم من أجل الفقراء والمساكين، كلها عبادةٌ لله تعالى وتسمى في العربية دِينًا. كذلك طريقة عبادة الهندوس واليهود والزرادشتيين وغيرهم، أيا كان شكلها، أيضًا ستسمى دينًا)، ٦- الملة؛ ٧- الورع؛ ٨- المعصية؛ ٩- الحال؛ ١٠- الشأن.. (والشأن له معنيان: أوّلهما: الحالة الخاصة، علمًا أن الشأن يفيد

الحال أيضا، ولكنه يدل على حال أفضل، وثانيهما: الأمر الهام جدا)؛ ١١- العادة. (الأقرب)

التفسير: في الآيات السابقة من هذه السورة، قد أمر الله تعالى رسولَه والمؤمنين أن يعلنوا أن اتحادهم مع الكافرين في العبادة مستحيل، أما قوله تعالى هذا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فذكر فيه سبب هذا الإعلان، فبيّن ﷻ أن محمدًا وأتباعه لا يقومون بهذا الإعلان عنادًا، إنما سببه أن دين الكفار يعلّمهم طريقة عبادةٍ تتنافى مع طريقة العبادة التي يعلِّمها محمد وأتباعه، فشتان بين طريقتي عبادة الفريقين، فاتحادهما في العبادة مستحيل.

لقد أعلن الله تعالى في الآيات الأولى من هذه السورة عن قراره المبدئي، أما الآن فأتى عليه بالدليل وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. وهذا الأسلوب متّبع في لغتنا (الأردية) أيضا، حيث يبين الكلامُ الأخير سببَ الكلام الأول، ويكون الكلام الأول مبنيا على الكلام الثاني، كقولنا: هذا الأمر هكذا، لأن فلانًا قال هكذا. واللغة العربية تمتاز بالبلاغة والإيجاز، فتؤدي هذا المفهوم من دون هذه الوصلات، وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه الله تعالى في الآيات قيد التفسير، حيث قال أولاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾...أي نأمر كل مسلم في أي زمن أن يقول لكفار عصره أن من المستحيل عليه أن يعبد الآلهة التي يعبدونها، ولا يمكن أن يعبدوا الإله الذي يعبده، كما يستحيل عليه أن يتعبد بطريقة عبادة الكافرين، ولا يمكنهم أن يتعبدوا بطريقة عبادته، فنشأ على ذلك سؤال طبيعي: ما الداعي لهذا الإعلان؟ هل سببه العناد والعداء الذي يكنّه المسلمون للكافرين أم هناك مبرر آخر؟ فردَّ الله على ذلك بأن ليس هناك عداء ولا عناد، وإنما سبب هذا الإعلان هو ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي أن دين المسلمين يعلّمهم طريقة عبادة تختلف جدًّا عن طريقة العبادة التي يعلّمها دين الكافرين، فلا سبيل لاتحاد الفريقين؛ وهكذا فإن قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قد زاد مفهومَ الآية السابقة إيضاحا وردَّ

بكلمات جامعة مانعة على السؤال الذي اختلج في الطبائع بأنه ما الداعي لإعـــلان البراءة هذا.

لقد ذكرْنا أحد عشر معنى لكلمة الدين عند شرح الكلمات، وكل هذه المعاني تنطبق هنا، مما يبين كيف أن الله تعالى قد ردَّ بهذه الآية على السؤال الطبيعي الذي اختلج في القلوب بعد الإعلان الذي تمّ في الآيات السابقة، حيث بيّن الله تعالى أن محمدًا ﷺ وأتباعه مضطرون للإعلان أنه يستحيل عليهم أن يتخلوا عـــن مبـــادئ العبادة التي يعلِّمها دينهم ويتحدوا مع الكفار في أمر العبادة، فهناك أسباب قويـــة لذلك وقد ذُكرت بإيجاز في كلمة الدين، وفيما يلي بيانها:

١: إن المسلمين يرون أن مبادئ طاعتهم لإلههم القادر القيوم تختلف عن مبادئ طاعة الكفار لآلهتهم؛ فالدين هنا بمعنى الطاعة.

٢: إن طريقة عبادة المسلمين تختلف عن طريقة عبادة الكافرين، فالدين هنا بمعنى ما يُعبد به الله.

٣: إن أصول الحكم عند المسلمين مختلفة عما هي عند الكافرين، فالدين هنـــا بمعنى السلطان والمُلك والحُكم.

٤: إن تعريف التقوى والحسنة والسيئة عند المسلمين مختلف عمّا هو عليه عند الكافرين، كما أن مبادئ الحلال والحرام عند المسلمين تتصادم مع مبادئ الكافرين بهذا الشأن، فالدين هنا بمعنى الورع والمعصية.

٥: إن مبادئ معاشرة الناس عند المسلمين مختلفة عما هي عليه عند الكـــافرين، فالدين هنا بمعنى السيرة.

٦: إن تدابير المسلمين مختلفة عن تدابير الكافرين، فالدين هنا بمعنى التدبير.

٧: إن عادات المسلمين مختلفة عن عادات الكافرين، فالدين هنا بمعنى العادة.

٨: إن مبادئ الأعمال اليومية عند المسلمين مختلفة عما هي عليه عند الكافرين، فالدين هنا بمعنى الحال.

لقد اتّضح من هنا أن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِـــيَ دِيـــنِ﴾ أن هناك بونًا شاسعًا بين المسلمين والكافرين فيما يتعلق بالمبادئ وفي طريقة العمل؛ لذا

فالمسلمون مصيبون تمامًا في إعلانهم أن اتفاقهم مع الكفار في العبادة محال. غاية ما يمكن أن يقوله الكفار هو أن المبادئ وطريقة العمل التي يتّبعها المسلمون باطلة، ولو أثبتوا ذلك لبطلت دعوى المسلمين، ولكن لو ثبت أن المبادئ وطرق العمل التي يقدّمها الإسلام هي الصحيحة، فاختلاف المسلمين عنهم في العبادة كان في محله وضروريا، ولا يمكن الاعتراض عليه واعتباره عنادا ومكابرة.

أتناول الآن بالتفصيل ما ذكرته مجملاً، لأبين أن قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هو السبب وراء الإعلان الذي تم في الآيات السابقة، وأن هذه الآية قد جاءت تبيانًا وتدليلا على موضوع الآيات السابقة.

لقد ذكرْنا عند شرح الكلمات أن أول معنى للدين هو الطاعة، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها الكافرون، إن طريقة الطاعة ومبادئها مختلفة عندي عما هي عندكم، فمن المحال أن أعبد آلهتكم وتعبدوا إلهي. إن طاعة الأصنام محال بحسب مبادئي، وطاعة الإله الأحد محال بحسب مبادئكم.

إن مبادئ الطاعة التي كان الرسول ﷺ والمسلمون يتمسكون بها والتي هي مستنبطة من القرآن الكريم هي كالآتي:

١: إنّ خالق هذا الكون ومالكه إله واحد، ولا بد للجميع من طاعة أوامره، قال الله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾(الحج:٣٥). والسؤال الآن: كيف يمكن طاعة الله تعالى، إذ إنه تعالى لا ينزل إلى الناس ليؤتيهم تعليماته؟ والجواب: لا شك أنه لا ينزل إلى الناس، ولكنه يبعث رسله، ومن خلالهم يصدر أحكامه للناس، كما قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾(الأنعام:١٠٤).. أي أن العقول لا تقدر على الوصول إليه، بل هو يصل بنفسه إليها من خلال طرق شتى. فإذا ما قام مدّع بين الناس، فإما أن يكون كذّابًا لم يُنْزِل الله عليه وحيًا ولا شرعًا، وإما أن يكون صادقًا، فإذا كان صادقًا، وقد نزل عليه الوحي والشرع، فمَن كفر به فلا يمكن أن يكون مطيعًا لله تعالى. فالذين يؤمنون برسوله هم المطيعون لأحكام الله تعالى، وأما الذين يكفرون به فهم المعرضون عن صراطه المستقيم. وحيث إن الله تعالى قد أنزل هدْيَه للناس على محمد ﷺ، فلن يُعَدّ الآن

مطيعًا لله تعالى إلا مَن يتّبعه. وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾(النساء:٨٠-٨١).. أي: يا محمد، قد أنزلْنا على يدك أسباب الهدى للناس، فمن أراد الآن أن يطيع الله تعالى، فعليه أن يطيعك؛ لأن في طاعتك، طاعة لله.

وقد أعلن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾(آل عمران:٣٢-٣٣).. أي: يا محمد، أعلنْ بين الناس بأنكم إذا كنتم تحبّون الله وتريدون أن يحبّكم، فإنما سبيله أن تتّبعوا أحكامه التي أنزلها على يدي وأن تطيعوني، فسوف يحببْكم الله متغاضيًا عن ضعفكم وتقصيراتكم، وسوف يتجلى عليكم بتجليه، ويستركم بفضله. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ يعني: أيها الناس، أطيعوا الله مِن خلال طاعة الرسول، لأنه يأتيكم بأحكام الله تعالى، فمَن آمنَ به فقد أطاع الله. ومِن هنا لزم على المرء أن يطيع أحكام الله تعالى وفقًا لتفاصيلها التي بيّنها محمد ﷺ، وإلا فلا يمكن أن تسمّى مطيعًا لله تعالى. فالحق أن الذي يتّبع ما أنزله الله في وحيه من أحكام وشرائع، هو الذي يستحق أن يدّعي طاعة الله، وهو الذي يمكن أن يشترك معه الإنسان في عبادة الله. أما منكر الإسلام؛ فلأنه لا يعمل بتعاليم الرسول ﷺ، فلا يمكن أن يطيع الله تعالى حقًا، وبالتالي فمن أطاعه في الأمور الروحانية واشترك معه في عبادة الله تعالى فقد خالفَ مشيئة الله.

٢: إن الذي ليس في قلبه عاطفة حب الله تعالى، أو الذي لا يتمسك بالتوحيد الكامل، فلا تجوز طاعته أيضا، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٩).. أي: أيّها المخاطَب، لا تُطِعْ مَن خلا قلبه من حُبّنا واتّبع أهواءه، لأن طاعته ستُبعِدك عن الله الأحد. إذن، فلزم ألا يطيع الإنسانُ إلا مَن يخاف الله تعالى ويعتاد ذكْرَ الله ويعمل على نشر وحدانيته، أما الذي ليس متحليًا بهذه الخصال، فإن صحبته وقيادته تُبعد الناس عن الله تعالى وتقضي على عبادة الله بدلاً من إرسائها. ولما كان الكافرون لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى وقلوبهم تخلو من حب الله، فاتحاد المؤمنين معهم في العبادة محال.

٣: إن الذي يحاول إثبات صدق دعواه بالأيْمان بدلاً من إثباتها بالأمر الواقع، فالتعاون معه لن يؤدي إلى الفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾(القلم:١١). فالإسلام يأمر بأن يكون كل شيء مبنيًّا على الحقائق والواقع، ولذلك قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي أعلِنْ بين الناس أنني وأتباعي نبني دعوانا على الشواهد والبينات والحقائق.

إذن، فيجب أن يكون كل شيء مبنيًّا على الواقع وليس على الحلف فقط. لا شك أن القرآن الكريم قد أقسم بأشياء كثيرة، ولكن كل تلك الأقسام هي بمنْزلة الشهادة، فقال الله تعالى مثلا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج:٢).. أي: نقدّم شهادةً السماءَ التي هي ذات مدارج، على أن السماء الروحانية أيضا ذات مدارج، بمعنى: أن الترقيات الروحانية أيضا ذات درجات مختلفة، ولو وضعتم هذا الأمر في الاعتبار لانكشفت عليكم الحكمة وراء إنزال الله تعالى شرائع مختلفة في عصور مختلفة. لو أدركتم ذلك لسهُل عليكم فَهْمُ ما نزل على إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ من هدي وشريعة. أما إذا لم تأخذوا هذا الأمر في الحسبان و لم تفهموه، لانتابت قلوبكم الشكوك، وقلتم: ما الداعي لمجيء موسى بعد إبراهيم؟ وما الحاجة لأن يظهر عيسى بعد موسى؟ ولماذا بُعث محمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام؟ وحيث إن محمدًا ﷺ وأتباعه يبْنون موقفهم على الواقع والبرهان، فاتحادهم مع الكفار في العبادة محال، لأن هؤلاء لا يبنون موقفهم على الواقع، وإنما على الأيْمان الباطلة التي لا علاقة لها بالحقيقة والواقع.

٤: إن الذي ينكر ضرورة الشريعة الإلهية لن يطيع الله تعالى، وإنما يطيع نفسه، ومَن اتّبع مثل هذا الإنسان فهو أيضًا لن يعبد الله وإنما ينحرف عن عبادته؛ قال الله تعالى ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(الإنْسان:٢٥).. أي: أيها المخاطَب، إذا أطعتَ مَن يكفر بشرع الله تعالى ويخالف أوامره، فلا بد أن يبعدَك عن الله تعالى. لما كان الكفار يخالفون شرع الله تعالى، فلن تكون نتيجة اتحاد المسلمين معهم في العبادة إلا أن يُلقوهم بعيدا عن الله تعالى؟

٥: إن بعض الناس يصدّقون بالحق أولاً، ثم يغيّرون موقفهم مرة بعد أخرى، ومثل هؤلاء أيضًا لا تكون طاعتهم طاعة لله ولا عبادتهم عبادة حقيقية بحسب مبادئ الإسلام، إذ لا إيمان لهم في الواقع، إذ لو كان عندهم إيمان لما غيّروا موقفهم في كل مرة. قال الله تعالى في مثل هؤلاء: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(النور:٤٨).. أي أن بعض الناس يقولون آمنا بالله وبالرسول وصدّقنا بالحق، ثم يغيّرون موقفهم دائما، فاعلموا أنهم ليسوا من زمرة المؤمنين الصادقين –ورد في الروايات السابقة أن بعض الكفار كانوا يرتكبون مثل هذه الحماقة، أو كانوا يقولون للمؤمنين: تعالوْا نعبد كعبادتكم بعض الوقت– وبما أن الإسلام يرفض هذا التصرف، فمن المحال أن يتّحد المؤمنون معهم في العبادة، لأنهم ليسوا مخلصين في العبادة، وليس المؤمن الحق عند الإسلام إلا مَن هو مخلص في العبادة ومداوم عليها ويؤديها عن قناعة تامة.

٦: ومن أطاع في بعض الأمر، فلم يُطِعْ حقيقةً. والمراد من الطاعة في بعض الأمر أن يطيع المرء فيما يتفق مع رغبته، ويرفض الطاعة فيما لا يرغب فيه. والذي يطيع في بعض الأمر، فإنه لا يبتغي رضا الله، بل يتبع رضا نفسه؛ مما يدل بوضوح على أنه ليس مستعدًّا لطاعة الله طاعة كاملة، وإنما يريد طاعة نفسه فقط. ويخبر الله تعالى عن الكافرين بأنهم يقولون أنهم سيؤمنون ببعض، أي أنهم يريدون أن يطيعوا فيما يتفق مع رغباتهم وطبائعهم.

باختصار، إن الذين يطيعون الله تعالى فيما يتفق مع أهوائهم لا يسمَّوْن مطيعين لله تعالى، فكيف يمكن أن يتّحد معهم في العبادة قوم لا يطيعون الله تعالى لمجرد أنّ أوامره تتفق مع طبائعهم ورغباتهم، بل يظلون مطيعين له وإن كانت أوامره خلاف رغباتهم؟

٧: يجب ألا يطيع المرء أحكام الله تعالى من أجل منافع مادية. فمثلا يجب ألا يؤدي الزكاة لتقوية علاقته مع القبيلة، وإنما عليه أن يزكّي ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى، وإلا فلن يُعَدّ كاملا في إيمانه. قال الله تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾(التوبة:٧١).. أي أن الكاملين في إيمانهم إنما هم أولئك الذين يزكّون أموالهم

طاعةً لله تعالى وابتغاء مرضاته، لا طمعًا في فوائد مادية ولا من أجل تقوية أواصر القرابة وتحسين علاقات الصداقة.. أي سواء كان الأمر متّفقًا مع رغباتهم أو محققًا لمصالح قومهم، إلا أنهم لا يفعلونه إرضاءً لأنفسهم أو لقومهم، بل لمرضاة الله تعالى. فالذي يبتغي مرضاة الله في أعماله، كيف يتفق في العبادة مع قوم لا يعملون بأحكام الله تعالى إلا من أجل مصالحهم الشخصية أو مصالح قبيلتهم؟

ثم اعلمْ أن لفظ الطاعة لا يعني الإذعان فقط، بل يعني ذلك الإذعان الذي يكون ببشاشة القلب ورضا النفس. يقال: جاء فلان طوعًا، أي غير مكرَهٍ؛ والطوع: ضده الكَرْه وهو ما أكرهتَ نفسَك عليه (الأقرب).. أي أنك لا ترغب في عمل ما، ولكنك تقوم به مكرها بسبب الضغط الخارجي، ومثل هذا العمل لا يتم ببشاشة القلب أبدا.

ومشتقات الطوع المختلفة توضّح مفهوم الطاعة أكثر، يقال: طاوَعَه فيه وعليه مطاوعةً: وافقَه. وطاوعَ له المرادُ: أي أتاه طائعًا سهلاً. وأطاعه المرتَعُ: أي اتّسع وأمكنَه الرعي؛ وهذا مجاز، كأن المرعى قدَّم نفسه للأنعام لكي تشبع. (الأقرب)

فالطاعة لا تعني –لغةً– مجرد الإذعان، بل الإذعان المقرون بالرضا والبشاشة والمنزّه عن الجبر والإكراه. أما الطاعة التي تكون بتكلُّف – أي حين لا ينشرح صدر المرء لفعل شيء، فيُكره نفسه على القيام به متظاهرًا بالبشاشة– فتسمى تطوُّعًا، قال الله تعالى ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة: ١٨٥).. أي أن الذي لا يستطيع أن يعمل الخير بشوق ورضا وانشراح صدر، فعليه أن يعمله تكلّفًا ويُظهِر البشاشة تصنعًا على الأقل، حتى لا يبدو وكأنه يعتبرها عبئا، ولو فعل ذلك لانفتحت عليه أبواب الخير التي تنفتح لمن يعمل الخير ببشاشة وانشراح صدر. فقد قال الإمام الراغب في مفرداته: "التطوّع في الأصل تكلُّفُ الطاعة، وهو في التعارف التبرعُ بما لا يلزم كالتنفّل".

وعليه فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ يعني أن مَن فعل الخير نفلاً فهو خير له. ونظرًا إلى هذا المفهوم للطاعة –التي هي أحد مفاهيم "الدين"– فسيعني قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: أيها الكافرون، إن مفهوم الطاعة عندكم هو

خلاف ما هو عندي، إذ تعتبرون القيام بالآداب الظاهرة طاعة، أما أنا فالطاعة عندي القيام بأحكام الله تعالى ببشاشة قلب، بحيث يجد فيها المرء لذة وسرورا.

والمرء لا يعمل بالأحكام ببشاشة إلا إذا توفّرت الشروط التالية:

١: أن يفهم فلسفة الأحكام.

٢: أن يكون جانب الرحمة غالبًا في الأحكام.

٣: أن يكون في العمل بها منافع أكثر من المشقة.

٤: أن تكون مفيدة بحق الإنسان بحيث يصل إلى غايته.

وهذه الأمور الأربعة لا تتوفر إلا في أحكام الإسلام دون الأديان الأخرى.

الحافز الأول: إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي كل أحكامه مبنية على حكمة وفلسفة، أعني أنه لا يأمر بحكمٍ إلا ويبين معه سببه وفائدته وغايته، لكي يجد العامل بها متعة في قلبه ويدرك أنه لا يقوم بعمل عبث، وأنه لا يطيع أمرًا فقط، بل فيه كثير من المنافع الفردية والجماعية.

و لم تنزل على الرسول ﷺ الأحكام فحسب، بل قد نزلت مع فلسفتها أيضا. قال الله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(النساء:١١٤).. أي: يا أيها الرسول، لقد أنزلنا عليك كتابًا كاملا مشتملا على الأحكام، كما أنزلنا عليك فلسفتها، وعلّمناك ما لم تكن تعلم من قبل، وكان فضل الله عليك عظيما.

ثم بيّن الله تعالى أنه لم يُنزِل فلسفة الأحكام من أجل رسوله فقط، بل أنزلها لكي يعلّمها أتباعَه، فقال الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٥). فقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يعني أنه يطهِّر قلوبهم ويعلّمهم طرق ازدهار أمتهم.

فالإسلام يتميز على الأديان الأخرى بأنه يذكر غاية أحكام الشرع وفلسفتها أيضا، لكي يعمل بها المرء ببشاشة وسرور واستمتاع. وهذه الفلسفة لا توجد في واحد أو اثنين من أحكام الإسلام فحسب، بل في جميع أحكامه.

إن إحصاء أحكام الإسلام وبيان فلسفتها يستغرق وقتا طويلا جدا، فلا أستطيع الخوض في هذا الموضوع بالتفصيل، غير أني أضرب هنا بعض الأمثلة تبيانًا للمراد.

١: الزكاة: لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(التوبة:١٠٣).. أي: يا أيها الرسول، خُذْ جزءًا من أموال المسلمين زكاةً، لكي تُطَهِّر قلوبهم بذلك، وتمهّد السبيل لازدهار أموالهم، وتدعو لهم برؤية تضحياتهم هذه، لأن دعاءك مدعاة لسكينتهم، وإن الله تعالى يستمع لدعائك، ويعلَم أحوال هؤلاء المضحين.

لقد قال الله تعالى هنا أولاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾.. أي: يا أيها الرسول، خُذْ من أموال المسلمين زكاةً. ثم بيّنَ الغاية مِن وراء هذا الحُكم فقال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾. فأوّل هدف للزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾.. أي أن تتطهّر أموالهم من حقوق الآخرين؛ ذلك أن الناس كلهم يكسبون المال بمساعدة الآخرين، ولهم حق فيه، وهذا الحق لا يزال موجودا في أموال الأثرياء مع دفْعهم أجرة العاملين؛ فمثلا لو أدى الثري الذي يكسب من منْجمٍ للأجراء أجرهم، فلا يزال لهم حقٌّ في ثروته لأن الله تعالى أعلن في القرآن: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة: ٣٠) .. أي أن الله تعالى خلق جميع كنوز الكون لفائدة الناس أجمعين، لا لشخص معين؛ فثبت أن حق الأجراء في مِلْك هذا المنجم لم يصل إليهم حتى بعد أداء أجرهم لهم، وليس سبيل أدائه لهم إلا أن يعطيهم شيئا زائدًا على أجرهم. ولكنه ما أدى بعدُ حق الآخرين كاملا، إذ أدى للأجراء فقط حَقَّهم في مِلْك المنجم، ولكنه لم يؤدِّ لغيرهم من الناس حَقَّ مِلْك المنجم، لذلك قد أمَر الإسلام أن يدفع هذا الثري للدولة نصيبا معينا من هذه الأموال لكي تنفقها على الناس كلهم إنفاقا مشتركا.

أما المزارع الذي يكتسب الرزق من أرض يملكها غيره، فلا شك أنه يأكل ثمرة جهوده، ولكنه ينتفع بلا شك من الأرض التي خُلقت للإنسانية جمعاء، ولذلك فيأمره الإسلام بدفع جزء من دخله للدولة لكي تنفقه على مرافق الناس جميعا، وبحسب هذا القانون يدفع المزارع عُشْرَ دخله للدولة.

أما صاحب الأرض فهو أيضا يدفع الزكاة على ما تدرّ عليه أرضه.

أما التاجر فلا شك أنه يكتسب باستثمار أمواله في الظاهر، ولكن تجارته تتوقف على أمن البلاد الذي يساهم في إرسائه كلُّ مواطن، فلكي يدفع نصيب الآخرين في أمواله، فقد فرض عليه الإسلام الزكاة لتتطهر أمواله من حقوق الآخرين.

والغرض الثاني لإخراج الزكاة هو ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾: أي أن يفتح الرسول أبواب الرقي والازدهار للأفراد وللأمة والبلد، لأن التزكية تعني التنمية والترقية أيضا. وحيث إن قوله تعالى: ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ قد ورد إزاء قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، فعلينا أن نأخذ من معاني التزكية ما يختلف عن التطهير حفاظًا على فصاحة القرآن الكريم. ويتضح من القواميس أن من معاني التزكية التنميةَ بالإضافة إلى معنى التطهير، وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: خُذْ زكاةَ أموالهم من أجل تطهير قلوبهم وتطهيرِ أموالهم بإخراج ما فيها من حقوق الآخرين، ومن أجل تمهيد السبيل لازدهار الأمة والبلد. مما يعني أن الزكاة ليست عبادة فحسب، بل هي سبيل لأداء حقوق العباد أيضا.

ثم إن القرآن الكريم قد ذكَر مصارف الزكاة أيضا ليبين بوضوح تام كيف تُسَدُّ أهمّ حاجات الأمة بأموال الزكاة. ولولا إنفاق هذه الأموال على سَدّ هذه الحاجات لأصبحت الأمة بلا حيلة ولا قوة. قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٦٠). فالزكاة لها ثمانية مصارف: ١- الْفُقَرَاءِ، ٢- وَالْمَسَاكِينِ، ٣- وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا.. أي الذين يجمعون أموال الزكاة، ٤- وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ٥- وَفِي الرِّقَابِ.. أي تحرير العباد أو إنقاذ

المعرَّضين للشدائد، ٦- وَالْغَارِمِينَ، ٧- وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ.. أي في الأمور التي أمر الله بالإنفاق فيها أو فيما يرضي الله تعالى، ٨- وَابْنِ السَّبِيلِ.

فأول مصرف للزكاة هو الفقراء، أي الذين هم بحاجة إلى مساعدة الآخرين - جزئيا أو كليا- من أجل لقمة العيش، مثل المعوّقين والمعتوهين واليتامى والأرامل. فمسؤولية هؤلاء كلهم تقع على الأمة، وإذا لم تهتمّ بهم لقيت الخزي والهوان. لقد أصدر هذا الحكم ليَتِمَّ به مساعدة المحتاجين بشكل دائم ولا تصاب الأمة والبلد بالضعف.

لا شك أن الله تعالى قد ذكَر الفقراء هنا أولاً، ولكن هذا لا يعني أن الإنفاق عليهم مقدَّم على كل مَن ذكرتْهم الآية في كل حال، وإنما المراد أنهم مقدَّمون على الآخرين في الظروف العادية، وإلا فقد تطرأ ظروف تدفع الحكومة نفسها إلى الخطر، وعندها يُطالَب الفقراء أيضا -مهما بلغ فقرهم- بالتضحية من أجل الأمة، فقد كان الرسول ﷺ يدعو الفقراء والأثرياء كلهم للجهاد، وما كان يعطيهم شيئا. فثبت أنه إذا هُدّدَ استقلال البلد وحرية الأمة، فيمكن أن يطالَب الفقراء أيضا بالتضحية. فترتيب مصارف الزكاة هذا لا يعني أن الإنفاق على الفقراء قبْل غيرهم فرض في كل حال، بل هو مرجَّح.

ثم ذُكر المساكين في الآية. والمسكين يعني الفقير في الحقيقة، والفرق أنه فقير ساكن، فقد قال الرسول ﷺ في تفسير المسكين: هو مَن يجلس في بيته ولا يسأل الناس حياءً، وإنما يُعرف من حاله أنه بحاجة إلى المساعدة. ومع أن كلمتي الفقير والمسكين تدلان على نوع واحد من الفقر، إلا أن الله تعالى قد ذكرهما منفصلين لحكمةٍ، وهي أن مِن واجب الدولة الإسلامية ألا تعتني بالفقراء فحسب، بل عليها أن تبحث عن الفقراء الذين لا يدَعون الآخرين يطّلعون على فقرهم، وتمد إليهم يدّ العون.

والمصرف الثالث هو ﴿الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، أي الموظفون الذين يعملون على إدارة نظام الزكاة، فيجب أن يُعطَوا رواتبهم من أموالها. الواقع أن قوله تعالى ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ ذو مفهوم واسع، إذ يندرج فيه جيش الدولة أيضًا، إذ لولا الجيش لما كان

استقرار في البلاد، و لم تكنْ فيه تجارة ولا زراعة، ولولاهما فمِن أين تُجبى أموال الزكاة؟ فالحق أن للجيش دورا كبيرا في جمع الزكاة، غير أن العاملين على إدارة نظام الزكاة هم أول من يندرج تحت قوله تعالى ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

والمصرف الرابع هو ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.. أي الذين قلوبهم مؤلَّفة، مما يشير إلى أن قلوبهم مع المسلمين وظاهرُهم غير ذلك. فالمراد من المؤلفة قلوبهم قوم مائلةٌ قلوبهم إلى الإسلام أو إلى الدولة الإسلامية، ولكنهم لا يستطيعون إعلان إسلامهم أو تعاطُفهم مع الإسلام بشكل كامل لإقامتهم في بلاد الكافرين، فيمكن إنفاق مال الزكاة لمساعدتهم لنقْلهم إلى الدولة الإسلامية أو للحفاظ على ولائهم للإسلام. أو المراد منهم قوم قد آمنوا بصدق الإسلام، ولكنهم لو أظهروا إسلامهم تعرضت وظائفهم للخطر، و لم يجدوا سبيلاً للرزق، فيمكن إنفاق أموال الزكاة عليهم أيضا.

ولكن ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لا يعني إنفاق هذه الأموال على أحد لاستمالته إلى دين الإسلام، لأن الإسلام لا يسمح بذلك ألبتة، فإن محاسنه الذاتية كافية لانتشاره.

والمصرف الخامس هو ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، أي: إنفاق أموال الزكاة على تحرير العبيد. كان الرق شائعًا في العرب في بداية الإسلام، ولذلك أمر بتحريرهم، إذ حرّم الرقَّ الذي يتم بالبيع والشراء تحريما مطلقا.

غير أن قوله تعالى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني أيضًا أنه إذا اجتاحت أمةٌ ظالمةٌ أمةً ضعيفة واستولت عليها عدوانًا وظلمًا، وعاملتْها معاملة العبيد، فيجب على المسلمين مساعدة هؤلاء المستضعفين وتحريرهم من الظالمين.

وكذلك من معاني ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ مساعدة شخص لإنقاذه من الدَّيْن الذي لا يستطيع دفْعه.

والمصرف السادس هو ﴿الْغَارِمِينَ﴾، ويندرج فيه قوم يتحتم عليهم أحيانًا دفعُ مال ليسوا مسؤولين عن دفعه بشكل مباشر، كأن يعطي المرء ضمانًا لغيره، فيتوفى هذا أو يختفي، فلا يستطيع الضامن دفع مال الضمان، فيمكن مساعدته من مال الزكاة.

وكذلك يندرج فيهم أولئك التجار الذين تجارتهم نافعة للبلاد، ولكنها تضررت وتهددت بالكساد لحادث، فمن واجب الحكومة مساعدتهم لترويج تجارتهم لتنتفع بها البلاد.

والمصرف السابع هو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا يشمل كل الأعمال التي تساعد على نظام البلد والأمة واستحكامه وحمايته وازدهاره. فيندرج في مصطلح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجيش والتعليم والطرق والمشافي وغيرها من المشاريع التي لا تنفع فردا واحدا، بل تنفع الأمة كلها.

الواقع أن المصارف السابقة أشارت إلى المساعدة الفردية أساسًا، أما مصرف ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو إشارة إلى أنه تطرأ أحيانًا حاجات لا تُنسب إلى الأفراد، بل تنسب إلى الأمة أو البلد، فيتحتم عندها الإنفاق مِن أجل أمن البلد والملة وازدهارها، ولأنها نفقات كثيرة، فلم يفصّلها الله تعالى، وإنما استخدم لها كلمةً مجملة جامعة، لكي ينفِق المعنيون عند هذه الحاجات.

والمصرف الثامن هو ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾.. أي أن مِن واجب الدولة مساعدة المسافرين بمدّ الطرق ورصْفها وبناء النُّزُل لإقامتهم، وإنشاء المرافق ونشر المنشورات لتسهيل المعلومات للمواطنين وللسيّاح الغرباء من مسلمين وغير مسلمين الذين يأتون لزيارة الدولة الإسلامية والاطلاع على أحوال المسلمين، مما يزيد في دخلها، وتقوية علاقات الأجانب معها وذيوع صيتها وتحسين العلاقات الدولية بها. وكل هذه الأهداف تنصبّ في ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ .

لقد تبين من هذا أن الإسلام لا يأمر بأداء الزكاة فحسب، بل يبين أن وراءها فلسفة عظيمة، وأن الأمة لو عملتْ بهذا الحكم بشكل سليم لانفتحت عليها أبواب الرقي والازدهار على مصارعها باستمرار.

٢: الصيام: كذلك أمر الإسلام بالصيام في قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾(البقرة: ١٨٤). ثم أخبر الله تعالى أن هذا الصيام لشهر كامل على التوالي، فيجب أن تصوموا الشهر كله. ثم بين أنه ليس الغرض من الصيام أن تُعانوا من الجوع والعطش طول النهار، بل فيه

حِكَم عظيمة نافعة لكم، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ١٨٤).. أي أن الصوم يزوّدكم بالتقوى. وكلمة ﴿تَتَّقُونَ﴾ قد وردت في القرآن الكريم لثلاثة معان: النجاة من الآلام، والتخلص من الآثام، والوصول إلى الدرجات الروحانية العلى، وهكذا فقد ذكر الله تعالى ثلاثة من حِكَم الصيام.

أ: أما الحكمة الأولى بأن الإنسان ينجو من الآلام بالصيام، فتبدو غريبة، لأن الصائم يزداد عناء ببقائه جائعًا عطِشًا كل النهار، ولكن إمعان النظر يكشف أن الصوم يعلّم درسين: أوّلهما أن الأغنياء الذين يتناولون أشهى الأطعمة المتنوعة ولا يذوقون الجوع والفاقة هم أيضا يعرفون من خلال الصوم ما الجوع والفاقة وما هي معاناة الذين يضطرون له. وبتعبير آخر، إن الصوم يُطْلِعُهم على حالة إخوانهم الفقراء، فيتحمسون لمواساتهم، بما يساعد على ازدهار الأمة وحمايتها. ولا شك أن حماية الأمة تضمن حماية الفرد أيضا.

والدرس الثاني هو أن الإسلام يريد ألا يركن أبناؤه إلى الغفلة والكسل، بل يريد أن يعتادوا تكبُّدَ المشاقّ، والصوم يدرّب المسلمين كل سنة على تحمّل المشقة، وبتعبير آخر إن الذين يعملون بحكم الصيام لا يميلون إلى حياة البذخ والغفلة، فينجون من الدمار.

ب: والمعنى الثاني للتقوى أن المتقي يتقي من الآثام. والإثم في الحقيقة هو التكالب على المُتع المادية، والقاعدة أن المرء إذا اعتاد شيئًا لم يستطع الإقلاع عنه، ولكنه إذا تمكّنَ من ترك شيء بإرادته فلا تتغلب عليه الأهواء. فالصائم في رمضان حين يترك لله تعالى كل اللذات والمتع التي تدفعه إلى الإثم أحيانًا، ويعتاد ضبط النفس شهرا كاملا على التوالي، فهذا يسهّل عليه حتمًا مكافحةَ المغريات التي تدفع إلى الإثم.

ج: ثم إن الصيام يساعد على التقوى من حيث إن الصائم يواظب على صلاة التهجد في ليالي الصوم، مما يهيّئ له فرصًا أكثر للدعاء والعبادة. ثم إن العبد حين يترك راحته لله تعالى فإن الله تعالى يجذبه إليه ويقوّي روحه.

وقد بين الله تعالى حكمة أخرى للصيام في قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:١٨٦).. أي أن من منافع الصوم أن الصائم يجد فرصة أكبر لذكر الله لتفرُّغه من مشاغل الأكل والشرب طول اليوم. ومن منافعه أيضًا أن معاناة الجوع تولّدُ فيه عاطفة الشكر لله تعالى، فيقول: الحمد لله الذي ينجيني من ويلات الجوع السنة كلها.

٣: الحج: وأهداف هذه العبادة التي فرضها الله تعالى مشابهة لأهداف الصوم، أي أن الحج يعوّد صاحبه على ترْك وطنه لله تعالى وأقاربه وأعزّته ويخلق فيه الإحساس بالأُخوّة العالمية ويقوّيه. ومِن حِكم الحج التي بيّنها القرآن الكريم أيضا؛ تعظيمُ شعائر الله، وإحياءُ ذكراها. فالحج في الواقع إحياءٌ لذكرى الحادث الذي ترك فيه إبراهيم ابنه إسماعيل في البرية.

ثم إن الله تعالى قد قال عن الكعبة إنه أوّل بيتٍ بُني لعبادة الله الأحد؛ والمؤمن عندما يذهب للحج هناك يتراءى أمام عينيه كيف أن الله تعالى ينقذ عباده الذين يضحّون في سبيله ويعزّهم ويكرمهم، فيزداد يقينًا بذات الله وجلاله.

ثم إن الحاج عندما يرى نفسه في هذا البيت الذي بناه الله تعالى منذ بدء الخليقة لذكْره وعباداته، فيشعر بعلاقة روحانية غريبة بينه وبين الذين لا يزالون ينخرطون منذ آلاف السنين في هذا السلك الروحاني.. سِلْكِ ذِكْرِ الله وحبِّه.

باختصار، إن الإسلام لا يأمر بالعبادات فحسب، بل يبين حِكَمَها أيضا ويذكّرنا أنها كلها لفائدتنا، وليس أن الله تعالى قد فرضها تحكُّمًا، فكيف لا يمتلئ قلب العابد بشاشةً؟ ولماذا لا يعمل بكل حكم فرحا مسرورا؟ إن دراسة الكتب السماوية الأخرى تكشف أنها تُقدِّم الشريعة كغرامة؛ فالفيدا مثلاً مختفٍ تحت الحجب إذ لا تعثرُ فيه على أثر للشرائع والأحكام، أما التوراة والزندافستا؛ فيتضح لك بدراستهما أن فيهما شرائع، ولكن يبدو أنها ليست لمنفعة الإنسان، وإنما أمر الله بها العبادَ لأنه أراد هكذا، مما حال دون تحقُّق الغرض الحقيقي للشريعة، وهو إصلاح النفس. لا شك أن فيها أحكامًا ورد فيها أنها منافع للعباد، ولكنها على

سبيل الشاذ والنادر، أما القرآن الكريم فهو وحده الذي يبين أن كل الأحكام الإلهية إنما هي لفائدة الإنسان.

والحافز الثاني الذي يولّد البشاشة عند العمل بأحكام الله تعالى هو أن يكون جانب الرحمة فيها غالبًا، لأن المرء إذا صدر منه ضعف أو تقصير في العمل بحكم من أحكامه تعالى، فرحمتُه ﷻ تتغاضى عن هذا الضعف. وهذه الميزة توجد في شريعة الإسلام دون شرائع الأديان الأخرى.

فالهندوس مثلاً يؤمنون بالتناسخ، والمراد من عقيدة التناسخ عند أهلها أن الله تعالى لا يستطيع أن يغفر لعبد ذنبه، ولا يمكن أن يجزيَه على عمله الحسن أكثر من عمله، فيمرّ مرتكبو الآثام بولادات متكررة يبلغ عددها ثمانية ملايين وأربع مئة ألف ولادة، بمعنى أنه يولد مرة بعد أخرى بقالب حيوانات مختلفة بدلاً من قالب الإنسان، عقابًا على إثمه. وليس منشأ هذه العقيدة إلا أنهم يرون أن جانب الرحمة ليس غالبًا في جزاء الله وعقابه.

والتدبر في الفلسفة الفيدية الهندوسية يكشف ألاّ سبيل لنجاة أي إنسان في الحقيقة، لأن من المحال أن تتيسر معرفة الخير والشر للإنسان بشكل صحيح من دون دراسة الكتاب الهندوسي "الفيدا"، ولا يمكنه تجنُّب الشرّ من دون هذه المعرفة الصحيحة، كما أن الفترة التي تستغرقها دراسة الفيدا هي ٣٦ عامًا على الأقل، وهذا ما ادعاه الباندیت دياناند مؤسس فرقة "آرياسماج" الهندوسية، حيث قال ما تعريبه:

تبدأ دراسة "الفيدا" بعد السنة الثامنة من العمر على الأقل، وتستغرق دراسة أجزاء "الفيدا" كاملةً ٣٦ سنة، وإذا أضفنا إليها السنوات التي سبقت الدراسة (أي ٨ سنوات) لصار عمر الدارس ٤٤ سنة، أما إذا تمت دراسة "الفيدا" في ١٨ سنة كحدٍ أدنى، وأضفنا إليها ٨ سنوات أو ٩ –حسب العمر الذي ابتدأت فيه الدراسة– فيصبح عمره ٢٦ سنة على الأقل وقت انتهائه من الدراسة. باختصار،

إن الإنسان يظل طالبًا ما لم يكمل دراسته للفيدا. (ستيارتھ بركاش، الباب الثالث ص ٤٦)◈

أما السؤال: ماذا عن الذنوب التي يرتكبها دارس الفيدا في فترة دراسته، أتغفر له أم لا؟ وهل يغفر "بروميشر" -أي الإله- ذنوب عباده الذين يحاولون التقرب إليه بالعبادة، فقد ذكره "الباندیت دیانند" في كتابه هذا وأجاب عليه، حيث ورد:

"هناك سؤال: هل يغفر "بروميشر" ذنوب عباده الذين يتقربون إليه بالعبادة أم لا؟ فالجواب: لا، لأنه إذا غفر الذنب فلا يبقى عادلاً، وأصبح الجميع آثمين جدا، لأنهم إذا سمعوا عن عفو "برميشر" عن ذنوب العباد، تجاسروا على ارتكابها من دون هوادة، لأن المِلك إذا غفر للناس جرائمهم تجاسروا عليها وارتكبوا جرائم كبرى، لأنهم يعرفون أن الملك سوف يغفر لهم، وأنهم إذا مثلوا أمامه رابطي الأيدي نادمين خائفين خاشعين فسوف يعفو عنهم، وهكذا فمن لم يرتكب الجرم من قبل فهو أيضًا يرغب في ارتكابه، ولذلك فإن عمل "إيشور" (أي الإله) أن يرتّب على أعمال الناس نتائجها الملائمة، وليس أن يعفو عنهم سيئاتهم. (ستيارتھ بركاش، الباب ٧، ص١٨٧).

وهذا يعني أن "إيشور" لا يغفر ذنوب عباده المقربين أيضًا، فهل يبقى بعده سبيل لنجاة الإنسان؟ إن الإنسان معرض للخطيئة والإثم، ولا سيما إذا لم يكن عنده علم كامل بتعاليم "الفيدا". ثم إن الإنسان إذا خُلق في قالب حيوان، فلا يبقى عنده شعور إنساني، فإذا رجع إلى القالب الإنساني.. أي إذا خُلق بعد هذه الولادات المتكررة بقالب إنسان.. فسوف يعود إلى الولادات المتكررة مرة أخرى، فيستحيل عليه نيل النجاة في أي مرحلة.

علمًا أنه بحسب العقيدة الهندوسية إذا نال الإنسان النجاة، فلا تكون نجاته أبدية، بل إنه يُخرَج من دار النجاة بعد فترة ليعود إلى الدنيا في دورة الولادات

◈ العبارة الأصلية غامضة ومبهمة جدًا، وقد ترجمتُ ما فهمته بمساعدة بعض الأساتذة الزملاء. (المترجم)

المتكررة المتنوعة، مما يعني أن "إيشور" يستبقي -على ما يبدو-بعض آثام ذلك الناجي ليعاقبه عليها، فيُخرجه من دار النجاة ليُلقيه في دورة الولادات المتكررة عقابًا على آثامه الباقية، إذ لا عفو لأي إثم عند الهندوسية، ولا يمكن أن يُجزى أحد على عمله الحسن جزاء زائدا أو غير محدود، ومن أجل ذلك تكون النجاة محدودة الزمن بحسب العقيدة الهندوسية.

وهذا هو حال الديانة المسيحية، إذ يؤمن المسيحيون أن آدم عليه السلام وقع في الإثم، فصار نسله كله آثما بسبب إثمه، وكل مولود يولد بعده يكون ملوَّثًا بإثمه، لأنه وارثُ آدم، وهذه الخطيئة الموروثة لا يمكن أن يسترها الله تعالى برداء عفوه، بل لا بد من أن يعاقِب الإنسان عليها. وما دام المسيحيون يرون أن نسل آدم كلهم آثمون، فيرون أيضًا أن أنبياء الله ومرسليه -عليهم السلام- ليسوا بمعصومين، بل آثمون. ولما كان نسل آدم عليه السلام كلهم آثمين، ولا يمكن أن يترك الله تعالى أي ذنب من دون عقاب، فاضطر أن يرسل ابنه إلى العالم ليحمل عن كل الآثمين آثامهم، ويعاقَب مكانهم.

هذه العقيدة المسيحية بعيدة عن العفو والرحمة كليةً، بل هي غير عادلة مطلقا، لأن إنزال العقاب بابن الله المعصوم مكان أبناء آدم الآثمين ليس من العدل في شيء (التكوين ٣: ١٧). باختصار، إن عقيدة الفداء والكفّارة تكشف بوضوح ألا رحمةَ ولا عفوَ عند الله تعالى بحسب عقيدة المسيحيين.

أما الإسلام فيعلِّم خلاف ذلك، إنه يعرض على العالم ذلك الإله الذي من صفاته أنه الغفور الودود الرحيم.. أي إذا بقي هناك ضعف وتقصير في عمل الإنسان، فإن الله تعالى يتغاضى عنه ويعامله بالمحبة والرأفة فاتحًا له طرق الرقيّ، شأن الأب المشفق الذي لا يريد أن يضيع ولدُه مهما بلغ تقصيره. إنما يريد الله تعالى لعباده أن ينالوا النجاة، وإن كان في أعمالهم بعض الضعف والتقصير. ومثل هذه التعاليم هي التي يعمل بها الإنسان ببشاشة القلب. وعلى سبيل المثال، إذا لم يستطع الإنسان أن يصلّي بتركيز وخشوع كما ينبغي، فإنه يعلم أن الإسلام لا يعتبر

صلاته باطلة، بل لو بقي في صلاته شيء من التقصير، فإن الله تعالى سوف يغضّ الطرف عنه ولن يغلق عليه أبواب أفضاله إذا ما ندم وأناب إليه تعالى.

وبناءً على ذلك يقدّم الإسلام مبدأ التوبة، أي أنه إذا صدر من الإنسان تقصير، فلا يعاقب الله تعالى عليه بالضرورة، بل لو أنه ندم على تقصيره، وأراد إصلاح خطئه مستقبلا بعزيمة صادقة، فإن الله تعالى سيفتح عليه أبواب الرقي التي قد سدّها بيده بتقصيره، فلن يسقط في الحضيض، بل سيظل يسمو إلى الأعالي. وقد ذكر الله تعالى هذا المبدأ في قوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾(آل عمران:١٣٦-١٣٧).. أي أن الذين يخالفون أمرًا من أوامر الله تعالى، وهكذا يظلمون أنفسهم، ثم يذكرون الله تعالى ويتداركون خطأهم طالبين المغفرة من الله تعالى -﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾- ثم لا يصرّون على فِعْلتهم، ويعلمون أن الله تعالى قادر على غفران ذنوبهم وفتح أبواب رحمته لهم، فجزاؤهم أن الله تعالى سيستر عيوبهم، فلن تُغلَق عليهم أبواب رحمته، بل سيفوزون بقرب الله تعالى، وينالون النجاة والمغفرة والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء لن يكون مؤقتا، بل سيعيشون في هذه الجنات للأبد، فما أروعَ جزاءَ العاملين!

يا له من تعليم عظيم! إذ إنه يفتح أمام الإنسان باب الأمل على مصراعيه، ويجعله يوقن أن بوسعه المضيّ قُدُمًا في سبيل الرقيّ، كل ما في الأمر هو أن يولّد في نفسه إحساسا سليما.

قد يفكّر المرء أن الله تعالى يمكن أن يغفر لمن صدر منه خطأٌ أو خطآن، ولكن ما بال الذي قد ارتكب خطايا كثيرة، فظن بسببها أن باب النجاة قد سُدّ في وجهه بعدها؟ ولاطمئنان هذا الإنسان قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر: ٥٤).. أي: يا أيها الرسول، أعلِنْ بين الناس بأن الذين

يظنون أنهم يرزحون تحت أعباء الخطايا وأنْ لا خلاصَ لهم منها، وأنّ باب النجاة مسدود أمامهم، عليهم ألا ييأسوا من رحمة الله، فإنه قادر على فتح باب النجاة أمام عباده مهما كثرت ذنوبهم وخطاياهم، لأنه تعالى أكثرُ مغفرةً مما يتصوره العباد، وأوسع رحمةً من أن يقدِّرها الناس.

فالله تعالى قد ركّز على رحمته مرة بعد أخرى، ونهى العباد عن اليأس والقنوط، وبيّن أن كل إنسان يمكن أن يحظى برحمة الله تعالى، لأن الرحمة أصل صفاته.

ورد في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاعْبُد اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ.

وفي رواية "فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا" (مسلم: كتاب التوبة).

وفي رواية: "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أن تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ." (البخاري: كتاب الأنبياء)

لقد بيّن الرسول ﷺ في هذا الكلام التمثيلي أن على المرء ألا ييأس أبدا، لأن رحمة الله أوسعُ من تصوُّر الإنسان، وأن الإسلام وحده الذي يقدِّم أمام العالم ذلك الإله الذي رحمته تستر الإنسان دائما. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧)، وقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(الأنعام:١٣)، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٩-١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني للرحمة خلقهم. فقد نقل ابن كثير قول ابن عباس: "للرحمة خلَقهم، و لم يخلقهم للعذاب".

فثبت أن جانب الرحمة غالب في تعاليم الإسلام، ومن آمن بهذه التعاليم فلن ينقبض قلبه في العمل بها، بل سيحدوه الأمل دائما وسيعمل بها مدركًا أنه لو كان في أعماله نقص أو تقصير، فإن الله تعالى سوف يستره برحمته. ولكن الأديان الأخرى لا تعلِّم ذلك، فلا يمكن أن يجد المرء بشاشة قلبية عند العمل بأحكامها.

والحافز الثالث الذي يولد بشاشة في القلب عند العمل بأحكام الشرع هو أن تكون فوائدها أكبر من الجهد المبذول فيها. وهذه الميزة لا تتوفر إلا في تعاليم الإسلام فقط. فمن صفات الإله الذي يقدّمه الإسلام "الرحيم"، والرحيمية تعني أن العبد يقوم بعمل، فيرتب الله ﷻ عليه نتائج كثيرة جدا. فمثلا: إذا أكل المرء، فلا تكون نتيجته الشبع فحسب، بل يتولد من طعامه الدم الذي ينفع جسده شهورا وسنوات، فيقوي به دماغه وبصره وعقله وأذنه، فيعمل مستعينا بها، ثم إن عملُه هذا يؤدي إلى نتائج تنفعه شهورا وسنوات أخرى، ثم مِن دمه تتولد النطفة التي تساعد على استمرار نسله، ثم يتولد من نسله أجيال بعد أجيال. مما يعني أن الله تعالى يرتّب على عمله نتائج كثيرة على التوالي. هذه هي الرحيمية. لو ترتب على عمل الإنسان نتيجة فورية واحدة لسميناها جزاءً، وهو يُشبِهُ الأجرةَ التي يعطاها الأجير مرة، ولكنها لا تسمى رحيمية، إنما مثل الرحيمية كمعاش التقاعد؛ إن الموظف يعمل عمله فيتلقى عليه جزاء فوريا، إضافةً إلى جزاء آخر يترتب على عمله من دون انقطاع، ويتلقاه بعد التقاعد. فالرحيمية أن العبد لا ينال جزاء عمله نقدًا فقط، بل إن رحيمية الله تضع أساسًا لنتائج طيبة أخرى لعَمله تظهر في المستقبل.

فالرحيمية تعني أن المرء يعمل عملاً بسيطا ويرتب الله عليه نتائج لا نهاية لها. والعبد إذا أدرك أنه سينال على أعماله جزاء أكثر بكثير من جهده، فمن الطبيعي أن يحبّ العمل بوصايا الله تعالى، لكي يُجزى عليه جزاء بلا حدود. ومن أدرك حق الإدراك أن الله تعالى عندما يجزي على عمل فلا ينقطع جزاؤه، فسيفرح في نفسه، ويبذل كل ما في وسعه لفعل الصالحات لينال من الله تعالى جزاء غير محدود.

ولقد بين الله تعالى مرارا في القرآن الكريم أن جزاء أعمال المؤمنين أكبر من جهودهم بكثير. قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين:٧). فقوله تعالى: ﴿أجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: أجرا غير مقطوع.

وقال الله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(الأنعام:١٦١). فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ يعني أنه لا يُظلم بنقصان جزاء حسنته، ولا بزيادة عقاب سيئته.

وقال الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٢).

لقد بين الله تعالى هنا أن الذين ينفقون في سبيله، أي في حاجات الدين والأمة، فإنه تعالى يزيد جزاءهم إلى ٧٠٠ ضعف بل أكثر؛ لأنه يجزي العبد بالنظر إلى نوعية تضحيته وظروفها. ومَن علِم أنه يمكن أن يُجزى على عمله ٧٠٠ ضعف، فلِمَ لا يعمل بأحكام الله تعالى ببشاشة قلبية؟

والحافز الرابع الذي يولّد البشاشة عند العمل بأحكام الله تعالى أن يدرك المرء أنها نافعة له، وأنه إذا عملها فاز بالمطلوب. ومن أدرك ذلك عمل بأحكام الشرع بطيب نفس، لا باعتباره غرامة. وإن وصايا الإسلام وحده التي يفوز الإنسان بالعمل بها برضى الله، كما يجلب بها منافع شخصية وقومية أيضا. خذوا الصلاة مثلا: فإن المصلي لا يفوز بها بلقاء الله تعالى، بل ينتفع بها منفعة شخصية، إذ يُحفظ من عيوب ومعاصيَ كثيرة. قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ

وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت: ٤٦).. أي أن الذي يؤدي الصلاة حق أدائها فإنها تنفعه نفعًا ذاتيا بأن يُحفَظ من شتى المنكرات التي لا يُحفظ منها الآخرون، وكأنه يتحصن بحصن لا يستطيع الشيطان اقتحامه. ثم هناك في الصلاة منافع للأمة، إذ يضع المصلي في الحسبان دائمًا أن علينا الحفاظ على شمل أمتنا، وأنه لا بد للمسلمين من إمام واجب الطاعة دائما تجتمع على يده الأمة كلها لرفع لواء الإسلام عاليا. ثم إنه إذا ذهب إلى المسجد للصلاة، اطّلع على أحوال إخوانه، مما يحقق للمسلمين تلقائيًا الهدف الذي تصبو إليه كل أمة متيقظة.

والحال نفسه فيما يتعلق بالصوم والزكاة؛ فليست فيهما مصلحة الصائم والمزكّي فقط، بل إنهما يساعدان المسلمين على تنظيم الأمة وتماسكها.

أما الحج، وهو من أهم العبادات الإسلامية أيضا، فيجلب لصاحبه منافع شخصية وجماعية وسياسية أيضا، حيث يجتمع جماعة من أهل النفوذ كل سنة، ويطّلعون على أحوال مسلمي العالم كله، فيزدادون أخوّةً وحبًّا واطلاعًا على مشاكلهم، فيزدادون تعاونًا فيما بينهم، كما ويتحلَّون بمحاسن إخوانهم. فالحج فرصة سانحة لمسلمي العالم للتشاور لمصلحة الأمة.

فكل الدوافع التي مِن شأنها أن تولّد البشاشة والحماس لطاعة أحكام الله حقًا، متوفرةٌ في تعاليم الإسلام دون تعاليم الأديان الأخرى، لذا فيمكن أن يذعن الناس لتعاليم أهل الشرك أو الأديان الأخرى في صورتها الحالية، ولكن من المحال أن يطيعوا فيها طاعة حقيقية. إن ما يسميه أهل الأديان الأخرى طاعةً، فهو ليس بطاعةٍ، إنما هو انقياد فقط. خذوا مثلا المشركين -مع العلم أن هذه السورة لا تتحدث عن المشركين فقط، بل عن الكافرين جميعًا بمن فيهم المشركون- فإنما أساس دينهم على ثلاثة أشياء، التقاليد والطقوس، والأوهام، وإنكار الحياة الخالدة، ومن المستحيل أن يتوق المرء شوقًا وبانشراح الصدر للعمل بأحكامها في ظل هذه الأمور الثلاثة. فالذي لا يقوم بعمل إلا لأن آباءه كانوا يفعلون هكذا، فإنما يقوم به نتيجة الجبر والضغط في الحقيقة؛ إذ يظن أنه إذا لم يقلّد آباءه فسيُعتبر عاصيًا لهم ومسيئًا لقومه. فالحق أن العمل بالتقاليد والطقوس المجردة لا يتم ببشاشة.

كذلك فإن الذي يقوم بشيء بناءً على وهْم فلا يمكن أن يقوم به ببشاشة، إذ من الممكن تماما أن يساوره وهم آخر غدًا، فيخالف ما يعمله اليوم، ثم يفعل خلاف ما يعمل غدًا، ومن أجل ذلك نجد المشركين يغيّرون مواقفهم دائما، ويعبد بعضهم صنمًا، والآخرون صنمًا آخر، ويتّبع هؤلاء طريقًا، والآخرون طريقا آخر.

ثم إن إنكارهم للحياة الخالدة يجعل تأثير أعمالهم محدودا جدا، ولا تجد فيهم – عند قيامهم بعملٍ– روحَ التضحية والبشاشة التي يتحلى بها المؤمن بالحياة الخالدة.

أما الإسلام فيخالف كل هذه الأمور الثلاثة.

١: فهو أولاً يحارب التقاليد والطقوس بشدة، لأن كثيرًا منها تمهّد للسيئات، لأن المرء يرتكب كثيرًا من المساوئ لكونه مصفّدًا بالتقاليد، فمثلا إنه لا يملك مالاً كافيا، ولكن تقاليد قومه تفرض عليه أن يلبس لباسا خاصا، فلا يستطيع أن يخالف هذا التقليد، فيضطر لكسب المال بطريق الحرام. ومن أجل ذلك ينهى الإسلام بشدة عن اتّباع التقاليد، ويعلن أن المرء يعمل بالتقاليد خوفًا من قومه، ولكنها أعباء ثقيلة تفوق قدرة الإنسان، إذ لا تفرق التقاليد بين الفقير والغني والمدين والحرّ، فيضطر الناس لارتكاب المعاصي والآثام، حفاظًا على كرامتهم الزائفة كيلا يُفضحوا أمام الآخرين.

ولقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أحد أهداف بعثة النبي ﷺ بأنه جاء ليحرر الناس من قيود التقاليد، فقال ﷻ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(الأعراف: ١٥٨).. أي أنه سيحظى برحمة الله الخاصة قومٌ يتّبعون هذا الرسول الموعود طاعة كاملة، الذي يجدون بشارة بعثته عندهم في التوراة والإنجيل. لقد ظهر هذا الرسول بينهم في أوانه وإنه يأمرهم بالصالحات ويحرّم عليهم الخبائث، ويحرّرهم من أعباء التعاليم القاسية، وأصفاد التقاليد التي قد ضيّقت عليهم الخناق.

ولما كان من أهداف بعثة الرسول ﷺ القضاءُ على التقاليد والطقوس الفارغة، فلم يكافحها الإسلام فحسب، بل ساق لاجتثاثها من جذورها دلائل شتى. قال

الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:١٠٥).. أي أن أصحاب التقاليد الفارغة هؤلاء إذا دُعوا إلى اتّباع شريعة الله التي أنزلها قالوا: تكفينا تقاليدنا وعاداتنا وطقوسنا التي وجدنا آباءنا يتبعونها. ألا يفكر هؤلاء أنه من الممكن أن يكون المروِّجون لهذه التقاليد لا يملكون علمًا ذاتيا بصددها، ولا يكون بحوزتهم أيّة تعليمات ربانية بشأنها، وإنما تكون تقاليدهم نتاج الجهل فقط؟ فهل يظلون -والحال هذه- يتّبعون آباءهم تقليدا أعمى؟

فالإسلام يعتبر اتّباع التقاليد والطقوس الفارغة جهالةً، ويوصي بتأسيس كل شيء على أساس الوقائع والحقائق والبينات والشواهد. لقد أمر الله تعالى رسوله أن يعلن: ﴿أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي ليست عقائدي أو عقائد أتباعي مبنية على التقاليد والطقوس الفارغة، بل هي مبنية على الحقائق والبينات، لأن النجاح ليس في اتّباع التقاليد والطقوس الفارغة، إنما النجاح في اتّباع الهدي النازل من الله تعالى.

باختصار، إن الإسلام يعارض التقاليد الفارغة ويقضي عليها، ويعدُّ من يتّبعها ويروّج لها جاهلا، ويدعو إلى اتّباع ما نزل من الله من الهدى، لأن الهدي النازل من الله تعالى هو الذي يدفع صاحبه إلى الطاعة بصدق وبشاشة، أما اتباع التقاليد والطقوس الفارغة، فيتم بجبر وإكراه لا ببشاشة قلب.

٢: ثم كيف يمكن لمسلم صادق أن يطيع آلهة المشركين الباطلة ما دام كل ما ينسب إليها من أفكار ليس إلا نتاج أوهام. فمثلا يظن عَبَدةُ هذه الأصنام أنهم ستصيبهم بضرر إذا لم يعبدوها. وهل هذا إلا محض وهْم؟ فبناءً على مثل هذه الأوهام كان هؤلاء يذبحون أولادهم أمام أصنامهم التي نحتوها بأيديهم، ولكنهم قوم لا يفقهون.

كان حضرة المولوي نور الدين ﷺ -الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام- قد عمل طبيبًا ملكيا عند مهراجا "كشمير" فترة من الزمن، فقال له المهراجا يومًا: يمكنك أن لا تعبد أصنامنا الأخرى، ولكن يجب أن تعبد صنمنا المشهور باسم

"كالي ديوي".. أي الإلهة السوداء، فإنها إلهة جبّارة قاسية جدًا. فقال حضرته: أيها المِلك، إن هذه الإلهة لا تقدر على أن تضرّنا شيئا. فقال الملك بعد تفكير قليل: صدقتَ أيها الشيخ، لقد فهمتُ قصدك؛ فإن مَن لا يعيش في مُلْكي لا أستطيع أن أعاقبه، فأنتم لا تسلّمون بحُكم الإلهة السوداء عليكم، بل تعتبرون أنفسكم خارج مُلْكها، فلا يمكن أن تضركم شيئًا.

فالحق أن ما يُنسب إلى الأصنام ليس إلا نتاج الأوهام، ومن المحال أن يقع العاقل المتدبر فريسة للأوهام.

كانت هند زوجة أبي سفيان -رضي الله عنهما- تكنّ للمسلمين أشد العداء، حتى إنها بقرتْ بطْن حمزة ﷺ عمّ الرسول ﷺ وأخرجت كبده ومثّلتْ به (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد)، ولكنها يوم فتح مكة حضرتْ متنكرةً بين النساء وبايعت النبي ﷺ. كانت شجاعةً، وعندما أمرهن النبي ﷺ أن يقلن إننا لن نشرك بالله، فلم تملك هند نفسها -إذ كانت شجاعةً- وقالت: كيف يمكن أن نقع في الشرك بعد أن تبين لنا أن لا حول ولا قوة لأصنامنا، وقد كتب الله لك النجاح والانتصار ولنا الذل والهوان؟ (السيرة الحلبية: في ذكر فتح مكة)

فثبت من هنا أن ما يُنسب إلى الأصنام مِن تعليمات وأحكام إنما هو مجرد أوهام. لقد ذكر الله تعالى في سورة الأنعام بالتفصيل أنه قد راجت في المشركين في زمن الرسول ﷺ أمور لم تكنْ إلا أوهاما، ومنها قولهم بأنه يجوز لفئة معينة من الناس أن يأكلوا مِن أَنعامٍ معيّنة، ولكن لا يجوز لهم أن يأكلوا من غيرها، وإلا أصابهم الضرر. كما كانوا يسيّبون بعض الأنعام بناء على الأوهام ويقولون يجب ألا يركبها أحد. أما الأنعام التي كانوا يحتفظون بها للتضحية بها على مذابح الأصنام، فكانوا يُحِلّون للرجال أكل لحم ذكورها أو إناثها أو ما في بطنها مِن وَلَد، ويحرّمونه على النساء، ولم يكن أساسه إلا الوهم، إذ لم يكن عندهم أي دليل عقلي عليه. قال الله تعالى إشارةً إلى تقاليدهم هذه: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ

الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٤-١٤٥).

لقد اعتبر القرآن الكريم هنا تقاليد المشركين كومةً من الأوهام. والحق أن اتّباع الأوهام لم يكن خاصًا بالعرب، ولا بزمن الرسول ﷺ، بل يتبع الناس في كل بقاع العالم تقاليد أساسها الأوهام فقط. والقرآن الكريم يكافحها كلها، لأنه يدعو إلى أن يكون كل حكم وكل أمر مبنيًا على الحكمة، لكي تتولد في قلب الإنسان بشاشة للعمل به، أما الأمور المبنية على الأوهام فلا يتّبعها إلا جبرًا وكرها، لا ببشاشة.

٣: ثم إن الإسلام يعلن خلافًا لعقائد المشركين أن الحياة ليست هذه الحياة الدنيا فقط، بل سوف نحيا بعد الموت حياة خالدة غير منقطعة، إذ ليس الموت إلا انتقالاً من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، فما نزرعه هنا نحصده هناك، وكيفما تكون أعمالنا نُجزى عليها في الآخرة. ولكن الذي لا يؤمن بالحياة بعد الموت، فتكون أعماله ذات نطاق محدود، ولا تتولد البشاشة في قلبه عند القيام بها، أما المؤمن بحياة الآخرة فتتّسم أعماله بالتضحية والإيثار والبشاشة. فالحق أن عقيدة الحياة بعد الموت تساعد المؤمنَ على عمل الصالحات ببشاشة، ولذلك قد أكد القرآن الكريم هذه العقيدة مرة بعد أخرى. قال الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (التوبة: ٧٢). فقوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يعني أن هذه البساتين والأنهار لن تكون مؤقتة أو عابرة، بل تبقى للأبد.

فالإسلام يعلم أن الحياة لا تنحصر في هذه الدنيا، بل هناك حياة بعد الموت، وهي الحياة الحقيقية، وعلى المرء أن يعمل من أجلها في هذه الدنيا. قال الله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

إضافةً إلى ما ذكرت آنفا، فإن الإسلام يقدّم إلهًا كلُّه محبةٌ. إنه يستجيب لدعاء عباده العابدين، ويكشف عنهم السوء، ويُطَمْئنهم عند الكروب ويُنزل عليهم السكينة بكلامه المفعم باللطف. قال الله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل: ٦٣).. أي ليس هنالك من يستجيب للمضطر ويفرج عنه كربه إلا الله.

ثم قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٧). فالعبد إذا كان على علم أن معبوده يستجيب أدعيته ويقدر على تنفيس كروبه، عمل بأحكامه فرِحًا، وخرّ على أعتابه مسارعًا. أما الأصنام التي يعبدها المشركون فلا تستجيب لدعائهم ولا تكلّمهم ولا تفرّج همومهم، والإيمان بها كعَدَمه، ناهيك عن أن تُعبَد.

وهذا هو الدليل الذي برهن القرآن الكريم به على أن الأصنام ليست بآلهة، فلما ذهب سيدنا موسى عليه السلام إلى الطور، وصنَع السامريّ مِن حليّ القوم عجلاً، وادعى أنه إلههم فأضلّ فريقًا منهم، رجَع موسى عليه السلام وحطَّم العجل، وكشف عليهم خطأ اتخاذهم العجل معبودا بقوله ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾(طه: ٩٠).. أي ألا يرى عَبَدةُ هذا العجل أن الإله الحق هو ذلك الذي يستمع لأدعية عبده ويكشف كروبه ويعبّر لهم عن حبّه، أما هذا العجل فلا شيء فيه من هذه الخصال؛ فلا يستمع لأدعيتهم، ولا ينفعهم ولا يضرهم شيئًا، فاتخاذ مثل هذا الشيء العديم الحيلة والجدوى إلهًا، خطأ فادح.

فالحق أن النظرية التي يقدّمها الإسلام عن الله تعالى تحمِّس المؤمن كي يسارع إلى الخرور على عتبة الله تعالى، ويستمتع بالعمل بأحكامه ووصاياه، أما الكافرون فالحق أنهم يعتبرون عبادة آلهتهم عبئًا، والعمل بأحكامها وتقاليدها غرامة.

أما المسيحية فأحكامها أيضا تخلو من الحكمة، بل إن أساس المسيحية يقوم على اعتبار الشريعة لعنة، حيث ورد "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ غَلاَطِيَّةَ ٣ : ١٣). وإذا كان الشرع لعنةً فلا بد من اعتبار أحكامه خاليةً من أي حكمة، إنما فرضها الله على العباد تسلطًا عليهم، ولا

فائدة فيها لهم. فإذا أمرهم بالصيام، فإنما لكي يعانوا قرصات الجوع وويلات العطش، وليس لأن فيها منفعة روحانية. فالمسيحية ترى في الواقع أن أحكام الشرع تخلو من أي منفعة فردية أو جماعية، وبالتالي إن العمل بها لعنة ومصيبة بالفعل. إنما تكون الأحكام رحمةً إذا كان في العمل بها منفعةٌ للفرد أو الجماعة، مثل أحكام الإسلام مِن صلاة وصوم وحج وزكاة، فكلها تحتوي على فلسفة عميقة، فهي لا تمكِّنُ العبد من وصال الله تعالى وقربه فحسب، بل تهيئ أسباب رقي الأمة وحمايتها.

باختصار، هناك بون شاسع بين طرق عبادة المسلمين والكافرين! إن طريقة عبادة المسلمين تشحن قلوبهم بالبشاشة، لأن أحكام شريعتهم كلها مليئة بالحكمة والمعقولية، فلا تشابُهَ بين عبادتهم وعبادة الكافرين المبنية على الأوهام. فعدم اتحاد الفريقين في العبادة أمر طبيعي. فالمسلم الذي اعتاد العملَ بالبصيرة، كيف يقوم بعبادة لا تتأسس على البصيرة؟ والكافر الذي اعتاد العبادةَ من دون بصيرة، كيف يمكنه أن يقوم بعبادة مبنية على البصيرة؟

باختصار، فإن الذي يتمسك بالمبدأ القائل ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٩).. أي أنه يؤمن بأن الله تعالى في غنى عن طاعة العباد، وإنه لا يُنزل لهم الأحكام إلا لمنفعتهم الفردية أو الجماعية، ثم إنه يؤمن بأن الشرك يتنافى مع جلال الله تعالى، فأنّى له أن يتّحد في العبادة مع قوم ليس عندهم مبدأ حقيقي أولاً، ثم إن مبادئهم ليست إلا مما اختلقوه بأنفسهم؟

ملخص الكلام أن الله تعالى كان قد أمر رسوله ﷺ والمؤمنين ألاّ ينصاعوا للكافرين، وإنما عليهم أن يعلنوها مدوّيةً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: يا أيها المنكرون، لا تتوقعوا أنكم تنجحون في استمالتنا إلى أديانكم، إنها أمانٍ زائفة، فاقطعوا أي أمل من جانبنا، إذ من المستحيل أن نتّبع طريقة عبادتكم، ولسنا مستعدين للعبادة بحسب مبادئكم. أما قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، فبيّن فيه سبب هذا الإعلان، وقال بأنكم تنكرون ما بيَّنه محمد من طريق للطاعة التي تنم عن طيب خاطر، مع أنها هي التي تولّد البشاشة في القلب

عند العمل، وكل إنسان سليم الفكر يحبّ أن يتّبع هذه المبادئ لأنها تبيّن علّة الأحكام وما فيها من أهداف ومنافع فردية وجماعية للعاملين بها، بالإضافة إلى فوزهم برضا الله. أما أحكام العبادة عند الأديان الأخرى، فلا يستطيع المرء العمل بها ببشاشة وطيب خاطر، إذ لا تذكر علّتها، ولا ما فيها من منافع فردية وجماعية لمن يعمل بها، فكيف يمكن أن يعمل بها مَن يُعمِل عقله وفكره؟ اللهم إلا أن يعطِّل عقله وقوته الفكرية. إذن، فكيف يمكن للمسلم أن يتّبع أحكاما غير معقولة معرِضًا عما عنده من أحكام سامية حكيمة بشأن العبادة، وأنّى له أن يفكّر في اتباع الأديان الناقصة تاركًا دينه العظيم؟! هذا هو معنى قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والمعنى الثاني للدين: السلطانُ والمُلك والحكم. والسلطان كما ورد في القواميس يعني الحجة والتسلط (الأقرب)، أي الدليل والغلبة، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: يا أيها النبي قل للكافرين:

١: أيها المنكرون، إن أدلتكم لإقناع الآخرين بعبادة آلهتكم وطرق عبادتكم تختلف عن الأدلة التي أحاول بها إرساء وحدانية الله تعالى وعبادته وحده.

٢: إن نتائج غلبتكم هي غير نتائج غلبتي.

٣: إن طريقة حُكمكم تختلف عن طريقة حكمي. ومبادئ الحُكم عندكم لا تتفق مع مبادئ الحكم عندي.

وهذا يعني أن هذه المعاني الثلاثة للدين تُقدّم ثلاثة أدلة قوية أخرى على صحة موقف المؤمن الصادق الذي ينكر الاشتراك مع الكافر في العبادة، حيث بين الله تعالى لماذا يعلن المؤمن بأعلى صوته في كل مرة ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. أي لا أستطيع أن أتحد معكم في العبادة.

إذن، فمن معاني الدين السلطانُ.. أي الحجةُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني أنه ليس بيد خصوم الإسلام لجعْل الناس يعبدون آلهتهم ويتبعون طريق عبادتهم إلا الجبر والإكراه، فإذا أنكر أحدٌ عبادة آلهتهم أو رفَضها، حاولوا

قهره على عبادتها، وهذا الطريق لا ينجح أبدا، إذ يمكن أن يقبل الإنسان أمرًا نتيجة الجبر، ولكن قلبه لا يقبله، فلذلك يسعى جاهدا للتحرر منه مرة بعد أخرى. إنما يطيع المرء طاعةً حقيقية إذا اقتنع بالأمر بناءً على دليل وبرهان، فيطمئن به قلبه وعقله. أما منكرو الإسلام فلا يقدِّمون على عبادة آلهتهم والترويج لها دليلاً يطمئن به العقل والقلب، وإنما يبدأون في تعذيب وإهانة مَن انحرف عن دينهم قليلا، وإذا لم يخضع لهم حاولوا اغتياله. هكذا كانت معاملة الكفار مع المسلمين حين كانوا تحت رحمتهم في بداية الإسلام، فالثابت تاريخيا أن كفار مكة قد صبّوا على المسلمين الفظائع لإرجاعهم لعبادة أصنامهم ثانية بعد أن تخلوا عنها نتيجة إيمانهم بوحدانية الله تعالى. كان بلال بن رباح ﷺ عبدا لأمية بن خلف، فأسلم وآمنَ بعبادة الله الأحد تاركًا عبادة الأصنام، فكان سيده أُميّة يلقيه تحت الشمس المحرقة في منتصف النهار عاريَ الظهر على الأرض الحجرية الحارقة، ثم يأمر بوضع صخرة كبيرة على صدره ويهدّده بأنه إذا لم يعبد اللات والعزّى فسوف يقتله بهذا التعذيب. وكان بلال لا يعرف العربية كثيرا، فكان يردّ على ظلمه قائلا: أحد أحد.. أي أن الله أحد. فكان أمية يزداد غضبًا، فيربط في عنقه حبلاً ويسلّمه للأولاد الأشرار، ليجرّوه في شوارع مكة الحجرية، فكان جسده ينزف دمًا، ومع ذلك كان لا يقول إلا: أَحد أَحد. فلما رأى أبو بكر ما يُصَبُّ عليه من تعذيب اشتراه من أمية وأعتقه (البداية والنهاية: ج٣، باب مجادلة المشركين رسول الله).

وكان خبّاب بن الأرتّ أيضا عبدًا، فأُعتقَ. كان حدّادًا، فلما أسلم أخذ الكفار في اضطهاده، وفي إحدى المرات أخرجوا الفحم من كيره وألقوه عليه، ثم صعد أحدهم على صدره حتى لا يتقلب، فلم يزل ظهره يحترق حتى برد الفحم الحارق وصار جلده كجلد البقر (الطبقات الكبرى: ج٣: في ذكر خبّاب ابن الأرتّ).

باختصار، قد صبّ الكفار على المسلمين أنواع الاضطهاد لكي يتركوا وحدانية الله ويعبدوا أصنامهم، حتى سلبوهم أموالهم وعقاراتهم واضطروهم للهجرة إلى المدينة من بلدتهم المحبوبة مكة. ثم إنهم لم يكفّوا عن مطاردتهم، بل جهّزوا جيشًا

وأغاروا عليهم في المدينة حتى استُشهد عدد غير قليل من المسلمين في تلك الحروب.

ولم يصُبّ المشركون كل هذه الفظائع عليهم إلا لأنهم كانوا يريدون فرض طريق عبادتهم على الآخرين بالقوة، معتبرين كثرتهم وقوتهم دليلاً على صدقهم. أما المسلمون فكانوا يدعون إلى عدم اللجوء إلى استخدام القوة لإجبار الناس على طُرق عبادتهم وإلزامهم بها، بل يجب أن يُمنح كل إنسان الحرية التامة في الدين، ويجب محاولة إقناعه بالأدلة والبراهين لاتباع طريق عبادة معينة؛ فإذا اقتنع بالأمر عمل به، وإلا فهو حرّ. وكان المسلمون يتّبعون هذا المبدأ في تبليغ دينهم أيضًا، فكانوا يقولون للكافرين بأن هذه الأصنام ليست إلا أحجارًا قمتم بنحتها بأيديكم، لا تملك ضرا ولا نفعا لأحد، ولا تجيب دعاء أحد، فما الفائدة من عبادتها؟ إنما يجب أن يعبد المرء مَن يقدر على إجابة دعائه وكشف سوئه ونفْعه والإحسان إليه، ولا يتصف بهذه الصفات إلا الله. كان المسلمون يعملون تمامًا بمبدأ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٧)، أي: لا جبر ولا قهر في العبادة، بل يجب أن يسعى المرء لإقناع الآخرين بالأدلة، لأن القرآن الكريم يعلّم مرة بعد أخرى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(الأَنْفال: ٤٣).. أي أن المعجزة التي أريناها في معركة بدر إنما هدفها ألا يهلك الهالك بضربة سيف فقط، بل يهلك بالدليل والبرهان، وأن الحيّ لا يحيا بنجاته من ضربة سيف فحسب، بل يحيا بالدليل والبرهان. ولقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الفتح أو الهزيمة يجب أن يكون من خلال الأدلة والبراهين، فالهزيمة الحقيقية هي ألا يملك الإنسان الأدلة، والغلبة الحقيقية أن يملك الأدلة التي يقنع بها الآخرين.

وقال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ (الأَنعام ٥٧-٥٨)، أي: أيها النبي، أعلِن بين الكافرين أنني قد نُهيت عن عبادة أصنامكم. إنكم لا تعبدونها إلا تحقيقا لأهوائكم، وليس بحوزتكم دليل،

ولو اتبعتُكم لانحرفتُ عن الصراط المستقيم. وأعلِن أيها النبي بينهم أن عندي براهين ساطعة على سداد طريق التوحيد الذي أتّبعه، ولكنكم تنكرونها.

وبعد تقديم الأدلة والبراهين، يعلن ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٣٠).. أي من استوعب هذه الأدلة فليؤمن بتعاليم الإسلام، ومن لم يستطع استيعابها فهو حرّ في اتباع الطريق الذي يسلكه.

وإذ كان الكفار قد حاولوا إكراه المسلم الذي يقع في أيديهم على عبادة أصنامهم بدلاً من عبادة الله الأحد، فقد أمر الله المسلمين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦).. أي إذا أعطاكم الله القوة واستجاركم أحد من المشركين، فعليكم أن تهيئوا له الجِوار والأمان، وتقدّموا له أفضل ضيافة، أي أن تَعرضوا عليه تعاليم القرآن، ولا تُجبِروه على الإيمان بها، بل أَبْلِغوه إلى دياره بأمان.

وكان المسلمون يعملون بحرص على إرساء الحرية الدينية، فعندما انتشر الإسلام في المدينة ونالوا القوة والسلطة لم يلجأوا إلى الجبر والإكراه ألبتة. قبْل وصول الإسلام إلى المدينة كان الرجل مِن قبيلتي الأوس أو الخزرج -وكانوا مشركين وقتها- إذا لم يُنجب ولدًا ذَكَرًا نذر أنه لو رُزق ابنًا فسوف يُهوِّده، وهكذا صار كثير من أبنائهم يهودًا، وعندما أُجليَ يهود بني النضير من المدينة بسبب شرورهم، رفض الأنصار أن يبعثوا معهم أولادهم هؤلاء الذين صاروا يهودًا، ولكن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك عملاً بقول الله تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (السيرة الحلبية: ج٢، في ذكر غزوة بني النضير، وتفسير الخازن: تفسير الآية: لا إكراه في الدين).

وعندما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة وحان وقت عبادتهم، سمح لهم النبي ﷺ بعبادتهم في مسجده، فاعترض بعض الصحابة على ذلك، ولكنه ﷺ رفض رأيهم، فقام هؤلاء بطقوس عبادتهم في المسجد النبوي متوجهين نحو الشرق. (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: حالات وفد نجران)

فالإسلام يدعو إلى الحرية الدينية، ويعرض تعاليمه وعبادته على الناس بأدلة قوية، ولكنه لا يرضى بإكراه الناس على العمل بها، وإذا تخلى أحد عن هذه التعاليم

بعد قبولها أيضا فلا يفرض عليه أي عقاب. أما المشركون فكانوا يفرضون عبادتهم على الآخرين بالعصا، ويُكرِهونهم على الالتزام بها، وإذا كره أحد طريق عبادتهم وأراد ترْكها، سعوا لقتله.

ومن معاني السلطان التسلّطُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن طريق تسلُّطكم خلاف طريق التسلّط عندي. إن تسلُّطكم على الآخرين يقضي على حرية الضمير، أما تسلّطي فيرسيه، فكيف يمكن أن نتفق في العبادة؟ ستدعون الله تعالى أن يهبكم الغلبة على خصومكم لتغيّروا دينهم قهرًا، أما أنا فأدعو الله تعالى أن يهبني الغلبة على الخصوم لكي أضرب لهم أروع مثال لإرساء حرية الضمير.

قال الله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحِجر: ٤٣)، مما يعني أن الشيطان يتسلّط على غير المؤمنين، والبديهي أن الذي يكون تحت تسلُّط الشيطان فإنه إذا نال الغلبة فلا بد أن يرسي على الآخرين تسلط الشيطان، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أنني أريد إرساء سلطان الله في الأرض، أما أنتم يا منكري الإسلام، فتريدون إقامة سلطان الشيطان، فكيف يمكن أن نتحد في العبادة؟

ومن معاني الدين المُلك والحكم، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: يا منكري الإسلام، إن طريقة الحُكم ومبادئه عندكم تختلف عما هو عندي، فأرى أن لكل فرد الحق في إبداء رأيه في الحكم وأن اختيار الحاكم بالانتخاب جائز، أما أنتم فتبيحون الاستبداد بالناس، وتحاولون الوصول إلى سدّة الحكم باللجوء إلى القوة والتحزب والاستعانة بالأعوان والأنصار. إن حكومتكم لا تكون نيابيةً أولاً، وإذا كانت نيابية فلا تمثّل الشعب كله. ولا تحافظون في حُكمكم على حقوق العاملين تحت مسؤوليتكم، وهو السبب دائما وراء أحداث التمرد ضدكم بكثرة، والخصومات بين الحاكم والرعية. إذا تولى أحدكم الحكم استكبر على الآخرين، وإذا عقدتم معاهدة مع دولة أخرى لم تفوا بها، بل نكثتموها إذا لم تحقّق مصالحكم. ليس عندكم قوانين ومبادئ سليمة تضمن الاستقرار في بلدكم والسلام مع الدول المجاورة. أما نحن فنخالف الحكومات الغاشمة، ونريد تحرير الناس منها،

وإرساء حكومة تابعة لمرضاة الله.. ممثلة للشعب كله، تهتمّ بسدّ حاجات العاملين في ظلّها، ويعتزّ رعاياها بالعيش تحت حكمها، ولا يكون فيها شُقّةٌ بين الحاكم والمحكوم، وتحافظ على الاستقرار والسلام داخل البلاد، كما ترسي السلام مع الدول المجاورة. فكيف يمكن مع هذا الاختلاف أن نتحد معكم في العبادة؟ إن عبادتكم تفتح طرق الظلم في العالم، أما عبادتي فتحول دون الظلم وترسي السلام.

وهنا ينشأ سؤال بأن المسلمين في مكة كانوا ضعفاء جدا عند نزول سورة الكافرون، وكانوا عرضةً للأذى والإساءة، فما كان ليخطر ببالهم أنهم سيقدرون على إنشاء دولة يسودها السلام والاستقرار وتكون نموذجا للجنة.

والجواب: لا شك أن المسلمين كانوا عندها في ضعف شديد وكان المعارضون ذوي قوة ومَنَعَة، وكانت في الجزيرة حكومةٌ قَبَلية، بينما كان على أطرافها قوتان كبيرتان: كسرى فارس، وقيصر الروم، ولكن الله تعالى قد بشّرهم بلسان رسوله ﷺ منذ البداية أنه سيبدِّل ضعفهم قوةً عن قريب، ويجعلهم غالبين على العالم كله، فكانوا موقنين بتحقُّق وعد الله تعالى وواثقين بقرب اليوم الذي تقوم فيه هذه الدولة القوية التي ستقضي على الجبر والاستبداد وتُرسي الأمن في العالم. وقد ذُكر هذا الوعد الرباني بكلمات صريحة في سورة النور التي نزلت في المدينة في قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الآية:٥٦).. أي أن الله تعالى قد وعد الذين آمنوا بمحمد ﷺ ويعملون الأعمال الصالحة، أنه سيجعلهم ملوكا عظماء في العالم، كما جعل ملوكًا في الأمم التي أنعم الله عليها من قبل، وسوف ينفّذ على أيديهم أحكامَ الإسلام السامية العظيمة، وسيبدّل خوف المسلمين السائد الآن -أو الذي سيحيط بهم في المستقبل- أمنًا، سوف يقيم هؤلاء الملوك عبادة الله في الدنيا، فمَن كفر بعد ذلك بمنه ﷻ واتبع طريقًا خاطئا معرضًا عن هذه الحكومة الحقّة، فسُيعَدّ من الفاسقين.

لقد وعد الله المسلمين هنا أنه سيجعلهم خلفاء في الأرض، والخليفة:

١: هو مَن يخلُف غيرَه ويقوم مقامَه

٢: السلطانُ الأعظم

٣: وفي الشرع: الإمامُ الذي ليس فوقه إمام (الأقرب)

أما الخلافة فمن معانيها:

١: الإمارة

٢: النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه أو لموته. (الأقرب)

وعليه فقوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني:

١: أيها المسلمون، سيجعلكم الله تعالى خلفاء وملوكا عظاما في الأرض.

٢: أن هذا المُلْك يكون نيابةً عن محمد ﷺ، أي أن من واجب هؤلاء الخلفاء أن يُنجزوا ما أنجزه الرسول ﷺ، إذ هم ينوبون عنه.

باختصار، قد وعد الله هنا المؤمنين بالحُكم، وأن هذا الحكم سيكون تابعًا للمشيئة الإلهية. ثم بين الله تعالى في قوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أن هذه الخلافة ستكون نيابة عن الله تعالى في الحقيقة، كاشفةً لصفاته تعالى، فمَن كفر بها فقد قطَع عهد المودة مع الله تعالى.

ورد في الحديث أن الرسول ﷺ بشّر بعده بالخلافة، أي بشخصيات تكون مظاهر لصفات الله تعالى، ولكن الأوضاع ستتغير بعدها ويميل المسلمون إلى ظلم الناس والاستبداد بهم تقليدًا للأمم الأخرى، ولكن الله تعالى سيقيم بعد فترةٍ الخلافةَ الحقة التي تحقّق مشيئة الله مرة أخرى. فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ. (مسند أحمد: أول مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير)

وبالفعل قد تحقق هذا الوعد الإلهي، ونال المسلمون الحكم في زمن الرسول ﷺ، واستمرّ حكمهم بعده أيضا، ولكنه أصبح مثل الحكومات الدنيوية الأخرى فيما بعد. والآن قد بعث الله المسيح الموعود عليه السلام، وهناك نبوءات أن الله تعالى سيضع الأساس على يده لحكومات لن تجري وراء متع الدنيا وزخرفها، بل ستسعى لإرساء المُثل الروحانية والأخلاقية، وستقضي على الظلم والاستبداد.

كانت هذه الوعود من الله تعالى، فكان لا بد أن تتحقق، وكان المسلمون واثقين من تحققها كل الثقة، ومن أجل ذلك أمرهم الله تعالى منذ البداية أن يعلنوا: أيها المنكرون، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي: هنيئًا لكم حكومتكم المستبدّة الجائرة، أما نحن فلا نُجيز الظلم والجور، بل لقد جئنا للقضاء عليهما. فحكومتكم لا تمنح الحرية الدينية، ونحن لا نريد التحرر من ربقة حكمكم الغاشم فقط، بل نريد تحرير الآخرين منه وإرساءَ حكومة عادلة مباركة. وبالفعل فإن اليهود والنصارى أنفسهم كانوا يريدون أن يكونوا من رعايا الحكومة التي قامت من خلال الإسلام، كما هو ثابت من التاريخ. ورد في التاريخ أن المسلمين لما استولوا على حمص خلال انتصاراتهم في بلاد الشام، توجسوا خطر هجوم العدو ثانيةً، فأخلوا المدينة وردّوا لأهلها المسيحيين ما أخذوا منهم من جزية قائلين: لقد أخذناها منكم على وعد أن نقوم بحمايتكم، ولكنَّا أصبحنا الآن في وضع حرج فلا نقدر على حمايتكم، فخذوا ما أخذْناه منكم. وكان هذا المبلغ بالملايين، فتأثّر المسيحيون من موقف المسلمين هذا أيما تأثر، فوَدَّعوهم وهم يبكون ويقولون في حماس: ليتَ الله يُعيدكم مرة أخرى. أما اليهود فكانوا أشدَّ تأثرًا من المسيحيين، فقالوا للمسلمين حالفين بالتوراة بأن قيصر لن يقدر على الاستيلاء على حمص إلا على جثثنا (فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٧، والخراج للإمام أبي يوسف ص ١٨١).

لقد ثبت من هنا ومن أحداث أخرى مسجلة في التاريخ أن الحكومة الإسلامية كانت تغزو قلوب الناس، قاضيةً على الظلم والاستبداد في الأرض، ومرسيةً الحرية

الدينية، ومحافظةً على المعاهدات، مما كان يرسي السلام في البلاد، فكان أهلها يحبّون الحكومة الإسلامية من أعماق قلوبهم.

ثم إن الإسلام قد قدَّم للحكم مبادئ سامية جدا، والحكومة القائمة على تلك المبادئ هي التي تضمن رقيّ العالم وسلامه. وهذه المبادئ كما يلي:

١: أن تكون الحكومة انتخابية، بحيث يُنتخب الحاكم بناءً على جدارته.

٢: أن الحكم ليس خاصًّا بأحد، بل هو أمانة.. أي أن الإسلام لا يرى أن المُلك وراثي.

٣: من واجب الدولة أن تحافظ على أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم.

٤: لا بد للحاكم أن يعدل بين الأفراد والأقوام.

٥: أن تتم قضايا الأمة بالتشاور.

٦: أن الحكومة مسؤولة عن توفير الغذاء والكساء والسكن لكل مواطن.

٧: ألا تنظر الدولة إلى الدول الأخرى بجشع، وأن تكون حروبها دفاعية فحسب.

٨: أن تعامل المغلوبَ بعدل.

٩: أن تعطي أسرى الحرب تسهيلات خاصة.

١٠: أن تلتزم بالمعاهدات.

١١: أن ترسي الحرية الدينية في البلاد.

هذه هي مبادئ الحكم في الإسلام، وقد ذُكرت بعضها في قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٩).. أي: أيها الناس، إن الله يأمركم أنه إذا أتيحت لكم الفرصة لأداء أمانة الحكم، فأدُّوها دائمًا إلى مَن ترونه أهلاً للحُكْم، وجديرًا بإدارة الحكم على ما يرام. ويا أيها الحكام، إذا حكمتم فاحكموا بالعدل، فإن ما يعظكم الله به خير لكم.

فالمبدأ الأول الذي قد بينه الله تعالى هنا مخاطبًا عامة الناس هو: أنّ اختيار الحاكم هو مسؤوليتهم هم، ولا يحقّ لأحد سواهم أن يختار حاكما لهم، فلا يمكن

أن يستولي أحد على الحكم بنفسه ثم يجعله وراثيا في أهله. هذا لا يجوز، كما لا يحق لأحد أن يحكم الناس لمجرد أنه ابن حاكم.

والمبدأ الثاني هو أن حقوق الحكم هذه أمانة ثمينة غالية، فأدّوا حق هذه الأمانة، مترفعين عن مشاعر العِرق أو الدين، فلا تضعوها في يد مَن ليس أهلاً لها، ولا تترددوا في وضْعها في يد شخص هو أهلٌ لها ولكنه ليس من حزبكم، بل ضَعوها في يد مَن يحافظ عليها بصدق.

والمبدأ الثالث هو أن الحكم ليس شيئا خاصّا دائما، إنما يعني الحكم وضْع حقوق مشتركة للناس في يد أحدهم؛ لأن وضْعها في أيديهم جميعا محال، فالحُكم أمانة لأنه عبارةٌ عن حقوق وفرائض للناس، فهو ليس مِلْكًا لأحد، بل هو ملك للمجتمع كله.

والمبدأ الرابع يتعلق بالحاكم، حيث قيل له: إن السلطة التي توهب لك إنما هي أمانة فحسب، فعليك أن تردّها عند موتك كما هي، مِن دون أن تفسدها أو تدمّرها. بمعنى أن على الحاكم أن يحافظ على الحكم وأن يحمي الدولة ويحافظ على حقوق المواطنين تماما، ولا يحق له أن يضيّعها.

والمبدأ الخامس المذكور هنا هو أن على الحكام أن يؤدوا حقوق المواطنين ولا يضيعوها ولا يهضموها، فلا يحق لهم أن ينحازوا لأحد فيقدّموه على الآخر، ولا أن يرفعوا قومًا ويضعوا آخرين، ولا أن ينشروا التعليم بين فئة ويحرموا منه أخرى، ولا أن يسدّوا الحاجات الاقتصادية لفئة ويهملوا حاجات فئة أخرى. بل كلما آتوا حقوق الناس، فعليهم بالعدل والإنصاف دونما انحياز ومحاباة لأحد.

باختصار، يأمر الإسلام أن تكون الحكومة انتخابية ونيابية أيضا.. أي يجب أن يكون الحاكم ممثّلاً للشعب كله وليس لفئة معينة. ثم لا يجوز للحاكم المنتخب أن ينقل الحكم إلى أولاده باعتباره إرثًا، بل يجب أن تنتقل هذه الأمانة عند وفاته للأمة، لتختار مَن تراه أهلاً لهذا المنصب.

والنُّظم السائدة في أوروبا وغيرها من بلاد العالم في هذا العصر، إما دكتاتورية أو ملَكية وراثية أو ديمقراطية خالصة، والإسلام يخالف الدكتاتورية والملكية

الوراثية، ويقدم النظام الديمقراطي، ولكن الديمقراطية الإسلامية تختلف قليلا عن الديمقراطية الحديثة التي تعتبرها الدول المتقدمة اليوم دليلا على تفوُّقها. ففي تلك البلاد يوجد نظام الأحزاب، وكل حزب يريد أن يُنتخب رئيسه حاكمًا للبلاد بغض النظر عما إذا كان هو الأكفأ للحكم أم رئيس الحزب الآخر. أما الإسلام فيعارض هذا المبدأ ويقول بأن انتخاب الحاكم يجب أن يكون على أساس الكفاءة والجدارة فقط، لا على أساس الحزبية.

ثم إن انتخاب الحاكم في هذه البلدان يكون لبضع سنوات فقط، ثم يُزال هذا العاقل الحكيم الأكفأ للحكم، ولكن دستور الإسلام يعلن أن الحاكم يُنتخب حتى مماته، فمِن واجبه أن يقضي عمره في العمل لخير البلد وليس للكبرياء والاستعلاء. وهذا محال إلا إذا كانت هناك خلافة روحانية، وكانت السلطة في يد شخص واحد. أما إذا لم تكن هناك خلافة روحانية، وكان الحاكم يملك سلطة البلد فقط، فيمكن انتخاب الرئيس لفترة محددة، ولكن يجب أن لا يتم انتخابه على أساس حزبي كما هو الحال في دول الغرب، بل يجب انتخابه على أساس الكفاءة فقط، وتُبذَل الجهود دائما لإتاحة الفرصة لأفضل العقول لخدمة الأمة.

الحق أن مبادئ الحكم في الإسلام مختلفة عما هي عليه عند الدول المتقدمة اليوم، بل هي أفضلُ مما عندها. ونحن نرى أن نظام الحكم المتداول في هذه الدول ليس صحيحًا.

ثم يذكر الإسلام مبدأ آخر معلنًا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(الشورى: ٣٩).. أي يجب أن تتم أمور الحكم بالشورى.. أي أن مِن واجب الحاكم المنتخب أن يعرف من خلال مجلس الشورى الرأيَ العام السائد في البلد، وإذا تطلبَ الأمر فيمكن أن يقوم باستفتاء عام لمعرفة رأي كل الشعب؛ حتى إذا خالف الرأيُ العام رأي الممثّلين المنتخَبين كان على علمٍ بذلك.

وأما إذا كانت السلطة الروحانية والدنيوية في يد فردٍ واحدٍ منتخَبٍ ممثّل عن الأمة، فمِن حقه أن يرفض رأي الأكثرية من مستشاريه؛ ذلك لأنه يكون إنسانًا مؤيَّدا بنصر الله بوجه خاص بحسب القرآن الكريم، ويكون أسمى من أي انتماء

سياسي، ويؤمن الناس أن رأيه يكون منـزَّهًا عن أي تعصب وانحياز، وأنه لن يعمل إلا لمصلحة الأمة والبلد. أما إذا كان الحاكم المنتخَب لا يمتلك إلا السلطة المادية فقط، فهو رئيس بلد فقط، وبالتالي فهو ملزم بالدستور الذي انتُخب بحسبه.

ثم يعلن الإسلام أن الدولة الإسلامية مسؤولة عن توفير الطعام واللباس والسكن لكل مواطن، وهذه أدنى حاجات المواطنين التي على الدولة أن تسدها، لأنها مسؤولة عن حمايتهم، وهم لا يستطيعون العيش بدون توفُّر هذه الأشياء، لأن الحياة الجسدية محال من دون طعام وسكن، والحياة الأخلاقية والمدنية محال من دون لباس. وقد ورد هذا الحكم في قوله تعالى ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ (طه: ١١٩-١٢٠). لقد جاءت هذه الآية في سياق قصة آدم عليه السلام حيث قال الله له بأننا قد قرّرنا إقامتك في جنة لن تتعرض فيها للجوع والعري والظمأ والحرّ.

يظن الناس خطأً أن هذه الآية تتحدث عن جنة الآخرة، وتصف حياة الإنسان فيها، مع أن الواضح من القرآن أن آدم عليه السلام قد خُلق في هذه الدنيا، قال الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣١)، والبديهي أنّ مَن يولد في هذه الدنيا يتعرض للجوع والعطش والعري وحرّ الشمس، ولا يمكن أن يكون في غنى عن المأكل والماء والملبس والمسكن. وما دام الحديث في هذه الآية عن الحياة الدنيا فلا بد من تفسيرها بمفهوم آخر، وما هو إلا أن الله تعالى يخبرنا هنا أنه لما أنزل قانونه الأول في الدنيا قال لآدم: إننا نسنّ لك قانونًا يُدخلك وأُمّتك الجنة. وملخص هذا القانون الإلهي توفير الماء والغذاء والكساء والسكن لكل إنسان؛ فيجب في المستقبل ألا يظلّ أحد منكم جائعا، بل من واجب المجتمع توفير الغذاء لكل فرد، ويجب ألا يبقى أحد بينكم عاريا، بل من واجب المجتمع أن يوفر له اللباس، وينبغي ألا يبقى أحد بينكم ظمآنا، بل من مسؤولية المجتمع توفير الآبار والترع للناس، وينبغي ألا يبقى أحد بينكم بلا مأوى، بل من واجب المجتمع تدبير المأوى له. وكأنها أول حضارة في العالم أقيمت بيد آدم عليه السلام، حيث كشف الله لأهل الدنيا أن الله تعالى

رب الناس كلهم؛ غنيِّهم وفقيرِهم وضعيفِهم وقويِّهم، وأنه لا يرضى أن تعيش طبقة معينة من الناس في رخاء وراحة، بينما لا يتوفر للآخرين حتى الطعام واللباس.

ولما كان النبي ﷺ آدمًا ثانيا، فأنزل عليه هذه الآيات في القرآن، وأمره بإنشاء حضارة مماثلة لحضارة آدم عليه السلام، فيتوفَّر فيها لكل مواطن اللباس والسكن والماء والغذاء. أسلم والي البحرين في عهد الرسول ﷺ فكتب إليه ﷺ: افرِضْ لكل رجل ليس له أرضٌ أربعةَ دراهم وعباءةً (الإصابة في تمييز الصحابة: المنذر بن ساوى). ولكن هذا لا يعني أن نساعد فقط مَن ليس عنده أرض، بل الحق أنه إذا كان أحد يملك أرضًا، ولكنها دُمِّرت، أو دُمِّر محصولها، فهو أيضا يُعامَل كَمَنْ لا أرض له، لأنه مشابه له في المحصلة.

ثم لما اكتمل هذا النظام الإسلامي في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه أصبحت الدولة الإسلامية مسؤولة عن توفير الطعام واللباس لكل مواطن عملاً بتعاليم الإسلام، فقامت بهذا الواجب على أحسن وجه. وتحقيقًا لهذا الهدف، قام سيدنا عمر ﷺ بإحصاء سكاني، ففُتحت السجلات ودُوّنت فيها أسماء جميع المواطنين. ويعترف المؤرخون أنه أول إحصاء سكاني في تاريخ الإنسانية، فسيدنا عمرُ هو الذي فتح نظام الدواوين والتسجيل أول مرة. ولم يكن الغرض من هذا الإحصاء إلا توفير الطعام والثياب لكل مواطن، إذ كانت الدولة مسؤولة عن معرفة أوضاع السكان. يقال اليوم أن روسيا السوفيتية قامت بتوفير الطعام واللباس للفقراء، مع أن الإسلام هو الذي بدأ بهذا النوع من النظام الاقتصادي، ففي عهد سيدنا عمر رضي الله عنه دُوِّنَ -في السجلات- اسم كل شخص مع زوجته وأولاده في كل قرية ومدينة، ثم تمَّ تحديد الغذاء الذي لا بد أن يوفّر لهم، لكي يعيش به مَن يأكل قليلا ومن يأكل كثيرا (تاريخ اليعقوبي: ج ٢، أيام عمر ابن الخطاب).

ورد في التاريخ أن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يضع في الاعتبار المواليد الرُّضَّع في أول الأمر، بل لم يكن هؤلاء يتلقوْن هذه المعونة من الدولة إلا بعد الفِطام. وفي إحدى الليالي خرج عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال رعاياه، فمرّ بخيمة يبكي فيها وليد، فتوقف عندها بعض الوقت، فوجد أن الوليد لا يزال يبكي وأُمّه تحاول أن تنوّمه. وطال

هذا المشهد، فدخل عمر في الخيمة وقال للمرأة: لماذا لا تُرضعين ولدك حتى ينام، فهو يبكي منذ وقت طويل؟ فقالت وهي لا تعرف أن عمر هو الذي يكلّمها: أيها الرجل، إن "عمر" قد قرّر عدم توفير الطعام للرضّع من قِبَل الحكومة، ونحن عائلة فقيرة نعيش بصعوبة، ففطَمتُ ولدي هذا لكي أتلقى له المعونة من بيت المال، فابني لا يبكي إلا بسبب خطأ عمر الذي سنّ هذا القانون. فعاد عمر ﷺ أدراجه وهو يقول من شدة الحزن: كمْ مِن ولدٍ للعرب تسببتَ في فطامه يا عمر، وجعلتَ ذراريهم ضعيفة؛ بسن هذا القانون الظالم، فأنت المسؤول عن هذا الإثم عند الله! ثم توجّهَ إلى بيت المال وأخذ كيسًا من الدقيق وحمَله على ظهره، فقال له بعض خَدَمه: دَعْني أحمل عنك هذا الكيس يا أمير المؤمنين. فقال: كلا، أنا المخطئ، ويجب أن أتحمل أنا تبعات ذنبي، ثم حمَل الكيس إلى المرأة. وفي اليوم التالي أصدر الأمر بتقديم المعونة لكل وليد بدءًا من يوم ولادته، لأن أُمّه التي ترضعه بحاجة إلى غذاء أكثر (تاريخ ابن خلدون).

فالإسلام قد أقام هذا النظام منذ أول يوم. لا شك أنه لم يستمر طويلا، ولكن القاعدة أن كل الإنجازات العظيمة تبلغ ذروتها على شكل موجات صعودا وهبوطا؛ فإذا قام أمرٌ مرةً فهو يندثر أيضا بعد فترة بتأثير التقاليد القديمة، إلا أن ذكراه لا تزال خالدة في الأذهان، ويبذر بذرة طيبة في العالم، وكل نبيل عادل يعترف بكونه حسنا، ويرى أنه من واجبه إحياءه في العالم ثانية. لا شك أن هذا النظام قد اندثر من العالم، ولكن الله تعالى قد غرس غراس الأحمدية لإقامة هذا النظام من جديد في العالم، وليس بعيدا حين تقطف الدنيا ثمارها الحلوة وينمحي الجوع والبؤس والآلام من العالم، وتصير الدنيا نموذجا للجنة، إن شاء الله.

ثم من واجب الدولة الإسلامية ألا تنظر إلى البلاد الأخرى نظرة جشع وطمع. قال الله تعالى ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣٢).. أي أيها المسلم، لا تتطلع إلى النعم المادية التي مَنَنّا بها على الأمم الأخرى، واعلمْ أن ما أعطاك الله هو خير لك

وأبقى.. أي أن هذا سوف ينفعك بعد الممات أيضا، وليس المال الذي يُجمع بالعدوان على الشعوب الأخرى.

مما يعني أن الإسلام يعارض التصرفات التي تمارسها مختلف الدول في هذه الأيام، فينهى المسلمين عن الهجوم على دولة أخرى للاستيلاء على أراضيها، غير أنه يسمح لهم بالدفاع إذا ما تعرضت الدولة للهجوم أو كان هناك خطر الهجوم (الحج: ٤٠-٤١)، كما أمر المسلمين بالرباط وتحصين الثغور. (آل عمران: ٢٠١)

وإذا انتصرتْ الدولة الإسلامية على المعتدي عند دفاعها فلا يسمح لها الإسلام بما تفعله الدول المنتصرة في هذه الأيام بالمغلوبين، بل يأمر بالعدل والعفو، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٩).. أي: أيها المؤمنون، اعملوا أعمالكم كلها لمرضاة الله تعالى، وأنصِفوا الناس، ولا تدفعنّكم عداوة قوم إلى ألا تعدلوا معهم، بل اعدلوا في كل حال، فهذا أدعى للتقوى، واتخِذوا الله سترًا لكم، إن الله عليم بما تعملون.

فالإسلام يأمر هنا بالآتي:

١: ألا يهاجم المسلمون دولةً أخرى لغصْب أراضيها

٢: إذا اضطروا للحرب الدفاعية فليعامِلوا العدو المنهزم بالعدل

ثم أمر أنهم إذا خاضوا حربًا دفاعية فيجب ألا يتّخذوا الأسرى إلا بعد حرب دامية. (الأنفال: ٦٨)

وإذا اتخذوا الأسرى فعليهم ما يلي:

١: إما أن يطلقوا سراحهم مَنًّا عليهم (محمد: ٥)، وهذا لا يمكن إلا فيما يتعلق بالأسرى الذين يعترفون بخطئهم ويتعهدون بعدم قتال المسلمين مستقبلا. فهناك قصة أسير اسمه أبو عزّة، كان النبي ﷺ قد خلّى سبيله يوم بدر على ألاّ يحارب المسلمين بعدها، ولكنه جاء لقتالهم في غزوة أحد، فقُتل في معركة حمراء الأسد (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد).

٢: وإذا لم تستطع الدولة الإسلامية لضُعْفها اقتصاديا إطلاقَ سراح الأسرى، فمن حقهم أن يتحرروا مقابل فدية يدفعونها. أما إذا لم يقدر الأسير على أداء الفدية فعلى الدولة الإسلامية أن تفتديه بأموال الزكاة. وإذا تعسّرَ ذلك فيعطى خيار المكاتَبة، أي أن يعاهد على دفع الفدية بالأقساط مما يكسبه بعد إطلاق سراحه، فيخلى سبيله بعد عقد المكاتبة فورا ويدفع فديته بالتقسيط.

وليكن معلوما أن الأفراد في الماضي كانوا يخوضون الحروب على نفقاتهم عادةً، فما كانت حكومات الدول المحاربة تُطالَب بدفع فدية أسراها، بل كانت الفدية تُفرض على الأسرى أنفسهم، أما اليوم فقد أصبحت الحروب قومية، والدول تنفق على جنودها الذين يخوضون الحروب، وبالتالي فلا بد من تغيير هذا النظام نظرًا لتغيُّر الأوضاع، فلا تؤخذ الفدية من الأسير، بل من الدولة التي يحارب في صفها.

٣: يمكن تسخير الأسير في شتى الأعمال إلى أن يدفع الفدية، ولكن الإسلام قد اشترط على المسلمين في هذه الحالة ما يلي:

أ: عدم تكليفه فوق طاقته.

ب: إطعامه مما يُطعمون منه أنفسهم.

ت: كسوه مما يكسون به أنفسهم.

ث: عدم ضربه.

ج: إذا كان صالحًا للزواج ولا يعرف مدة أسره فيجب تزويجه.

هذه الأحكام عادلة وسامية جدا. إن الدول "المتحضرة" المعاصرة تعامل أسرى الحرب معاملة سيئة جدا مقابل تعاليم الإسلام، فهي مثلاً لا تُطلِق سراح الأسرى منةً وإحسانا، وإنما تفضِّل أخْذ الفدية والغرامة، وكذلك لا تهتم بغذائهم ولباسهم، ولا تُطعمهم مما تأكل منه، ولا تكسوهم مما تلبس، ثم لا تسمح لهم بالاقتراب من زوجاتهم، ناهيك أن تقوم بتزويج العُزَّب منهم. باختصار، إن أحكام الإسلام أفضل من جميع الأحكام الأخرى بهذا الخصوص أيضا.

ثم إن الإسلام ينهى عن التعرض في الحرب للأطفال وكبارالسن والنساء ورجال الدين، ويأمر بحماية المعابد (البخاري، كتاب الجهاد)، كما يأمر الإسلام بمنح حرية تامة في أمور الدين، وينهى عن إكراه أحد في أمر الدين.

ثم إن القرآن يحثّ مرة بعد أخرى على الالتزام بالمعاهدات. إن الدول في هذه الأيام تعقد اتفاقيات ومعاهدات مع الدول الأخرى بنوايا شريرة، ولكن الإسلام يأمر المسلمين بالالتزام بالمعاهدة، وإذا كان هناك خطر أن تلجأ الأمة المعاهدة إلى الشرّ، فينهى عن الهجوم المباغت ويأمر بإخطارها بإلغاء المعاهدة لأنهم نقضوها أولاً، فإذا لم يرتدعوا، فيمكن عندها شنّ الحرب عليهم، لا قبْل ذلك. قال الله تعالى ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأَنْفال: ٥٩).. أي إذا توجستم خطر الخيانة من قبل الأمة المعاهِدة وخفتم أن يهاجموكم غير مبالين بمعاهدتهم، فانبذوها إليهم على قدم المساواة، لأن الله تعالى لا يحب الخائنين الناكثين للمعاهدات.

ثم قال الله تعالى بأنه إذا أرادت أُمة عقد الصلح معكم، فعليكم الصلح، ولا تصرّوا على الاستمرار في القتال، إذ قال الله تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأَنْفال:٦٢).

ثم إن الإسلام يأمر الدولة الإسلامية ألا تحتقر أي أمة أخرى، كما تفعل اليوم الدول التي تسمى متحضرة، حيث تقول بأن الشعب الفلاني أسود اللون، فهم عبيد لنا وليس لهم أي حقوق إنسانية، فقال الله تعالى ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ (الحجرات:١٢).. أي عسى أن يصبحوا أفضلَ منهم غدا.

ليس ضروريا أن يكون في العالم نظام واحد في وقت واحد، ولذا فقد أمر الإسلام: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:١٠).. أي إذا ما تحاربت أمّتان، فمن واجب الأمم الأخرى أن تتدخل في الأمر لإيقاف الحرب بينهما، وتسعى لإزالة سبب الخلاف بينهما، وتردّ الحق لصاحبه، ولكن إذا لم تتوقف

إحداهما عن الحرب، فعلى جميع الأمم أن تتحد وتحاربها معًا إلى أن ترجع إلى أمر الله.. أي إلى أن تتوقف عن الاعتداء؛ فإذا رجعتْ فعلى الأمم الأخرى أن تعقد بينهما صلحًا عادلا، فإن الله يحبّ أهل العدل.

يُستنبط من هذه الآيات المبادئ التالية:

١: إذا كانت في الدنيا دول كثيرة، ونشب الخلاف بين اثنتين منها، فعلى الدول الأخرى أن تتعاون فيما بينها وتشكل لجنة تسعى للهدنة بينهما.

٢: فإذا تصالحتا فبها، وإلا فإن على لجنة التحكيم أن تحكم بينهما بالعدل، ثم تجبرهما الدول الأخرى على العمل بهذا القرار.

٣: وإذا رفضت إحداهما هذا القرار أو رفضت العمل به بعد قبولها، فمن واجب الدول الأخرى كلها أن تحاربها معًا لإجبارها على الانصياع لقرار لجنة التحكيم إرساءً للسلام العادل.

٤: وإذا مالت هذه الدولة المعتدية إلى الصلح نتيجة ضغط لجنة التحكيم أو نتيجة شن الهجوم عليها من قبل الجميع، فعلى الدول الأخرى تنفيذ قرار اللجنة في القضية التي كانت سبب الخلاف مِن دون أن تجني من الدولة المغلوبة أية منافع أخرى؛ لأن هذا سوف يثير فتنًا أخرى.

هذه هي المبادئ الذهبية التي إذا عملت بها الأمم تضاءلت إمكانية الحروب في العالم جدًّا، وساده السلام.

ثم إن الإسلام حثّ على الحرية الدينية، وقال: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٧).. أي يجب ألا يكون في أمور الدين قسر ولا جبر، بل يجب أن يتمتع الجميع بالحرية الدينية التامة، لأن المرء يمكن أن يدخل بالجبر في الدين ظاهريًا، ولكن لن يقتنع بعقائده بقلبه وروحه. أما الإسلام فيأمر بإقناع الناس وفتح قلوبهم بالبراهين، ولذلك فإن الإسلام يشجب مَن لا يؤمن بقلبه ويتظاهر بإسلامه، ويسميه منافقا. فالإسلام يركّز على الحرية الدينية جدا ويعلن مرة بعد أخرى أن الانتصار الحقيقي يكون بالبراهين لا بغزو الأجساد.

باختصار، هناك بون شاسع بين نظام الحُكم في الإسلام ونظام الحُكم عند الكافرين؛ ففي مبادئ النظام الإسلامي ضمان لسيادة السلام في العالم، أما النظام الثاني فلا ضمان فيه للسلام، ومن ثم يستحيل اتحاد الفريقين في العبادة مع هذا البون الشاسع بين مبادئهما.

والمعنى الثالث للدين هو السيرة، وقد ورد في المعاجم أن المراد من سيرة الإنسان: "كيفية سلوكه بين الناس" (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن طريقة معاشرة الناس عندكم مختلفة عن طريقة معاشرة الناس في الإسلام. وهو اختلاف هام بين الفريقين، فكيف يتحدون في العبادة؟ إن الإسلام يرى أن حسن معاملة الناس عبادة، فقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال بأن وضْع الزوج لقمة في فم زوجته ابتغاء مرضاة الله تعالى صدقةٌ يثاب عليها (البخاري، كتاب الوصايا). إذن، فحُسْنُ سلوك المرء مع الآخرين عبادة في الإسلام. وما دام تعليم الإسلام يختلف عن تعاليم الكافرين فيما يتعلق بمعاملة الناس، فمن المحال أن يشتركوا معهم في هذه العبادة، لأن الكافرين لا يؤمنون بتعاليم الإسلام في حسن معاملة الآخرين.

والمعنى الرابع للدين هو التدبيرُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن اتحادنا معكم في العبادة مستحيل، لأن هناك بونا شاسعا بين تدابيركم وتدابيرنا.

الواضح أن كل فرد في الدنيا يبذل الجهد ويتخذ التدبير، حينًا للفوز برضا الله تعالى وتنفيذ مشيئته، وفي هذه الحالة يُعَدّ تدبيره عبادةً، لأنه تابعٌ للمشيئة الإلهية، وحينًا يتخذه لفائدة الناس بما فيه نفعه ونفع أسرته، فقد قال الرسول ﷺ: "وإنّ لنفسك عليك حقًّا" (البخاري، كتاب الصوم).. أي أن الله تعالى قد فرض على المسلِم أن يحسن إلى نفسه وإلى زوجه وجاره أيضا؛ فسواء عمِل المسلم معروفا لنفسه أو زوجه أو جاره فإن عمله يُعتبر عبادةً عند الإسلام، ولكن تعاليم الكافرين تختلف عن تعاليم الإسلام هذه، فمن المحال اتحاد الفريقين في العبادة.

والمعنى الخامس للدين هو: "ما يُعبَد به الله"، أي طرق عبادة الله كلُّها، كالصلاة وحج البيت وغيرهما من طرق العبادة عند المسلمين، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أن طرق عبادتكم، أيها الكافرون، تختلف عن طرق عبادتي. إن طرق العبادة الإسلامية كلُّها ذات حكمة، وأما طرق عبادات الأديان الأخرى فلا حكمةَ فيها، فكيف يمكن للمسلمين أن يتركوا طرق عبادتهم ويتخذوا طرق عبادة الآخرين؟ وأنَّى لغير المسلمين أن يتبعوا طرق عبادة الإسلام ما داموا يكفرون به؟ فالمسلم لا يشترك في عبادتهم بناءً على مبرر معقول، أما هؤلاء فلا يشتركون في عبادة المسلمين عنادًا ومكابرة. فثبت أن إعلان المسلمين للكفار ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ صحيح تماما.

والمعنى السادس للدين هو المِلّة. والمِلّة لها معنيان: الأول: الشريعة والدين، والثاني: السنّة والطريقة، أي نظام الأمة؛ وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، لكم شريعتكم ولي شريعتي، ولكم نظامكم القومي ولي نظامي القومي، فكيف نتّحد في العبادة مع هذا الخلاف؟

أما نظرًا إلى المعنى الأول للملة –وهو الشريعة– فواضحٌ أن المشركين لم يكن عندهم أي شريعة أصلاً، إنما كانت عندهم بضعة طقوس وتقاليد فارغة، أما الكافرون الآخرون من أتباع الأديان الأخرى فأحكام شريعتهم التي كانت بأيديهم كانت ناقصةً جدا وغيرَ قادرة على تقديم الحلول الشافية لمشاكل الحياة وقضاياها المختلفة، أما الإسلام فيقدّم شريعة كاملة من كل النواحي. يقول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(المائدة:٤). فالإسلام يعلن أنه قد أتى بشريعة كاملة مقابل شرائع الأديان الأخرى، وقد بين حتى كل تلك القضايا التي لم تتطرق لها الأديان الأخرى، وقد بيّنها بكل جزئياتها، وقد أرشد المسلم بكل تفصيل إلى كل الأمور التي كان بحاجة إلى إرشاد فيها، وهكذا أغناه عن كافة الشرائع الأخرى إلى يوم القيامة. فكيف يمكن للمسلم مع وجود هذه الشريعة السامية الكاملة أن يتحد في العبادة مع قوم

يتبعون مجرد التقاليد والطقوس الفارغة، أو يفتقرون إلى شريعة كاملة، وكيف أن يجد الطمأنينة عندهم؟

أما المعنى الثاني للملة – وهو السنّة والطريقة أي نظام الأمة– فاعلم أنه مهما كان الإحساس بالمسؤولية عظيما عند أهل بلد أو أمة، إلا أن جهودهم لا تأتي بنتائج عظيمة ما لم يقوموا بأعمالهم بشكلٍ جماعيٍّ موحَّدٍ منظَّمٍ. وقد ركّز الإسلام على هذا الأمر مرارًا، ونبّه الأمةَ إلى ضرورة الاتحاد على يد واحدة، لكي يبذلوا جهودهم بشكل موحد منظم لأداء المسؤولية الملقاة عليهم من عند الله تعالى. فصلواتنا تذكير بهذا الدرس نفسه، إذ لا صلاة من دون إمام. وقد قال الله تعالى حثًّا على ضرورة النظام والاتحاد ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٤).. أي: أيها المسلمون، استمسكوا بقوة بالشريعة التي أنزلناها، ولا تبرحوا مجتمعين على يد واحدة ولا تَفَرَّقوا، لكي تأتي جهودكم بثمار طيبة. فالإسلام يركّز على النظام والاتحاد في كل حال.

بيد أن الله تعالى يأمرنا أيضا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٣).. أي: ابذلوا جهودكم معًا لنشر الخير، واعملوا معًا على زرْع التقوى في القلوب، ولكن لا تساعدوا أحدًا في نشر الإثم والظلم والمعصية. إن أتباع الأديان والشعوب الأخرى لا يهتمون بهذا المبدأ ولا يعملون به، بل يساعدون إخوانهم بكل ما أوتوا من قوة وإنْ كانوا ظالمين. أما الإسلام فينهى عن التعاون مع الظالم أبدا، بل يفرض على المسلم أن يمنع الظالم من ظلمه ويساعد المظلوم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ (البخاري: كتاب الإكراه). أي امْنَع الظالم من ظلمه لتنقذه من النار، وانصُر المظلوم لتحظى برضا الله تعالى.

إن الناس لا يعملون بهذا المبدأ عادة، بل يعملون بما فيه منفعتهم، ولكن الإسلام يقدم هذا المبدأ العظيم الجدير بأن يُكتب بأحرف من نور، فيقول بأن من واجب المسلمين –بالإضافة إلى حفاظهم على النظام– أن يسعوا لنشر الخير والتقوى

والتعاون مع الحركات التي تنشر الخير، وأن يبذلوا الجهود لضم الناس كلهم إليها، ولكن يجب ألا يتعاونوا مطلقًا مع حركة تريد الإضرار بالناس. فكيف يمكن لمسلم إذنْ أن ينضم إلى الفريق الذي يظل يغيّر موقفه نظرًا إلى مصلحته الشخصية، وإنْ أدى ذلك إلى ظلم العباد.

والمعنى السابع للدين هو الورع، **والمعنى الثامن للدين** هو المعصية، والورع يعني التقوى، والمعصية تعني عدم الطاعة ومخالفة الأمر؛ إذن، فالورع والمعصية ضدّانِ، ولكن لما كان من معاني الدين الجزاءُ والعقابُ أيضا، والجزاءُ يكون على فعل الخير، والعقابُ يكون على فعل الشر، ولذلك قد فسّروا الدين بالورع والمعصية أيضا. وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: لكم طريق تقواكم ولي طريق تقواي.. أي أنني أتقي الله تعالى، أما أنتم فتتقون أصنامكم، إذ تنكرون وحدانية الله تعالى؛ وما دام هناك خلاف بين الفريقين فيمن يخافونه أو فيمن يعقدون عليه الآمال، فكيف يتّحدون في العبادة؟ أي أنكم تريدون إرضاء أصنامكم بأعمالكم متبعين عقائد آبائكم الباطلة بأن على المرء أن يخاف الأصنام في كذا وكذا، ويعقد عليها الآمال في كذا وكذا، أما أنا فأقوم بما يرضي الله تعالى وأجتنب ما يُسخطه، فكيف يمكن أن نتّحد في العبادة؟

والمعنى التاسع للدين هو الحال، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني أن حالي خلاف حالكم، أعني أن مشاغلي اليومية ومبادئي هي على عكس مشاغلكم ومبادئكم. قال الرسول ﷺ: "كلُّ أمرٍ ذي بال لم يُبدَأ باسم الله فهو أبترُ"* .. أي كل أمر هام لا يبدؤه المرء باسم الله لا تكون عاقبته حسنة، بمعنى أن على المرء أن يتوجه إلى الله تعالى في كل أمر صغير أو كبير، إذ لا يستطيع أن يتقدم

* أقرب ما وجدناه هو: "كُلُّ كَلامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ أَبْتَرُ أَوْ قَالَ أَقْطَعُ". (مسند أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

خطوة واحدة من دون عون الله تعالى، أما إذا شمله عونه تعالى عمل كثيرا مع ضعفه.

ثم إن الأمر ببدء كل عمل باسم الله فيه تنبيه للمسلم أن تكون أعماله كلها لوجه الله تعالى، ذلك أنْ لا أحد يسمي الله تعالى عند ارتكاب معصية، وإنما يذكر اسمه عند عمل يمكن أن يُعينه الله فيه، وهكذا فإن هذا الأمر سيحول دون وقوعه في السيئات التي يرتكبها الناس. عندما يهمّ المسلم بارتكاب سيئة ويقرأ باسم الله، فسوف يتذكّر أن الله تعالى قد نهاه عن ارتكابها، فلا بد أن يرتدع عنها، فلا تتقدم خطواته إلى السيئات.

كما أن المسلم سوف يعامل الناس بالعفو والرحمة، لأن صفتي الله "الرحمن والرحيم" تفرضان عليه أن يعامل خلق الله بالرحمة.

ثم إن الرسول ﷺ قد علّمَنا أدعية شتى قبل البدء في أي عمل، وذلك لكي يظلّ المرء دائم التوجه إلى الله تعالى، فتكون يده مشغولة بعمله، وقلبه مشغولا بذكر حبيبه ﷻ. هذا أولاً.

وثانيًا، إن في ذلك درسًا للمسلم ألاّ يفعل ما هو خلاف أوامر الله، لأنه إذا أراد فعْل شيء خلاف أوامر الله تعالى، فلا يمكن أن يدعو اللهَ من أجله.

فالحق أن المبادئ التي يقوم المسلم بأعماله اليومية بحسبها تتنافى مع مبادئ الأديان الأخرى. فهؤلاء يحاولون تحقيق أهدافهم بأي طريق؛ مشروع وغير مشروع، ومهما زُهقت في سبيله من أرواح، ومهما تعرض فيها خلْق الله للتعذيب والأذى، أما الإسلام فينهى عن ذلك. يقول الرسول ﷺ: "المسلم مَن سلِم المسلمون مِن لسانه ويده" (البخاري، كتاب الإيمان). فالمسلم يقوم بأعماله اليومية بحيث لا يؤذي أحدًا، أما الكافر فلا يبالي بذلك، فثبت أن قول المسلمين للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كان في محله تمامًا.

والمعنى العاشر للدين هو الشأن، ومعناه الخَطْب العظيم (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، أنتم تصْبون إلى تحقيق خطة،

ونحن أيضا نصبو إلى تحقيق خطّة، وهناك فرقٌ هائل بين أهداف الفريقين وخططهما، فاتحادنا محال.

فما هو أهم هدف للكافرين؟ إنما هو اتّباع التقاليد والطقوس الفارغة، لكن القرآن الكريم لا يقيم لها قيمة، ويعتبر اتّباعها جهالة، أما المسلمون فهدفهم الأساسي نشر وحدانية الله في العالم وتوطيد ملكوت الله في الأرض تماما، وأن يتّبع الناس شريعة الله تعالى، وأن يتّحدوا كلهم على مركز واحد، فيكون لهم إله واحد ورسول واحد وشرع واحد، وأن يصطبغوا كلهم بصبغة الله تعالى، لكي ينجو العالَم من ويلات الحروب ويسوده السلام، ولكي يسعى الناس جميعا لتحقيق المصالح العالمية بدلاً من تحقيق مصالح أنفسهم وقبيلتهم وشعبهم وبلدهم، فيكون لهم علاقة متينة كاملة مع الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤدوا حقوق العباد حق الأداء.

إن اليهودية والمسيحية وغيرهما من الديانات كانت مختصة بشعوبها، أما محمد ﷺ فقد بُعث للعالم أجمع، إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٩)، وقال الرسول ﷺ" أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهنّ أحد قبلي؛ نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأحِلَّت ليَ الغنائم، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامة". (مصنف ابن أبي شيبة، ومسند أحمد، والبخاري). وفي رواية: "بُعثتُ إلى الناس كافةً الأحمر والأسود "(مسند أحمد، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما).

وقوله ﷺ: "وأُحلّت لي الغنائم" يعني أن موسى عليه السلام قد أُمر بحرق كل ما يقع في يده من مال العدو (التثنية ١٣: ١٧)، أما أنا فقد خيّرني الله تعالى في أن أوزع غنائم الحرب على جنودي الذين يدافعون عن بلدهم دون مقابل، أو أن أُرجع هذه الأموال إلى العدو.

فالخُطّة المحمدية تهدف إلى جمْعِ الإنسانية كلها على منصة واحدة، والعودةِ بالناس في كل أقطار العالم إلى أعتاب الله الأحد، لتكون لهم وجهةٌ واحدة وغايةٌ واحدة، فيسيروا في درب الرقي على قدم المساواة. لقد قال الرسول ﷺ: "لا فضْلَ

لعربي على عجمي" (مسند أحمد: مسند الأنصار، ومجمع الزوائد: كتاب الحج)، وإنما قصد النبي ﷺ من قوله هذا أن من واجبنا رفْع مستوى الأمم الأخرى أيضا، لكي يمضي العربي والأعجمي كلاهما قُدُمًا على درب الرقي، لأن خطّة المسلمين هي جمْع الناس كافة على محطة واحدة. أما منكرو الإسلام فخطّتهم اتّباعُ التقاليد والطقوس الفارغة أو السعيُ لجلب المنافع لقومهم أو قبيلتهم، وما دام الفريقان يعملان على تحقيق خطتين متعارضتين، فكيف يمكن اتحادهما في العبادة؟

والمعنى الحادي عشر للدين هو العادة. والحق أن العادة والسيرة بمعنى واحد، إنما الفرق أن المرء يقوم ببعض الأعمال باندفاع داخلي، وبعضها بتأثير الدوافع الخارجية، وما يفعله باندفاع داخلي يسمى السيرة، وما يقوم به باندفاع خارجي يسمى العادة. وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها الكافرون، لكم عاداتكم ولي عاداتي، أي: شتّانَ بين عاداتكم وعاداتي؛ فعاداتكم خاضعة لتقليد الآباء الذين مبادئهم لا تتفق مع العقل والمنطق، أما عاداتي فهي ثمرة للعمل بالأحكام التي أنزلها الله الحكيم بناءً على حِكَم عظيمة. أنتم عبيد التقاليد والطقوس، واتبعتم ما وجدتم عليه آباءكم وأصبحتم معتادين عليها، وإنْ دفَعَتكم إلى هوة الدمار بدون شك، أما عاداتي فمنبعُها صفات الله تعالى الذي أمرَنا وقال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾(البقرة:١٣٩).. أي عليكم أن تصطبغوا بصبغة صفات الله؛ فصَبغتُ عاداتي بصفاته تعالى، فهي تتفق مع الفطرة السليمة التي قال الله تعالى عنها ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣١).. أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان بفطرة سليمة، فتنمو هذه الفطرة نماء صحيحا في المحيط الإسلامي، وعندما ينزل عليها ماء التعاليم الإلهية، فتؤتي أطيب ثمار ينتفع بها أقاربه وأصدقاؤه وغيرهم، فيصبح عضوًا نافعا جدّا في المجتمع. أما أنتم فيولَد الوليد فيكم بأفضل فطرة، ولكنّ أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه (مسند أحمد: مسند أبي هريرة، والمعجم الكبير للطبراني: ج١ رقم الحديث ٢٨٥)؛ بمعنى أنه إذا وُلد في بيت اليهود اصطبغ بعاداتهم، وإذا وُلد عند المجوس تأثر بعاداتهم، وإذا وُلد وترعرع بين النصارى أخذ

عاداتهم؛ وإذا وُلد في بيت المشركين تأثر بهم وأخذ بعبادة الأصنام واتّبع طقوسهم وتقاليدهم، مما يعني أن دينه هو دين آبائه، وأنه متأثر بمحيطه.

إذن، عاداتكم خلاف عاداتي، والحق أن اتفاق الفريقين في العادات أيضًا قد يصبح من دواعي اتحادهم، ولكن هذا السبب مفقود هنا، فسبيلكم غير سبيلي، فكيف يمكن اتحادنا في العبادة. فإعلاننا لكم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ حقيقة واضحة ليس وراءها أي بغض ولا عناد.

باختصار، قد أوجزَ الله تعالى في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كلَّ الأسباب التي كانت وراء نهيه للمسلمين عن الاشتراك مع الكافرين في العبادة. لقد بينتُ من قبل أن العبادة عند الإسلام لا تعني الصلاة فقط، بل إن كل الأعمال الأخلاقية والروحانية التي تتعلق بالمَدنية والسياسة والمعيشة، والتي إذا قمنا بها ابتغاء مرضاة الله ورقينا الروحاني تصبح عبادةً. فالعبادة المذكورة في هذه السورة –والتي قد أُمر النبي ﷺ بأن يُعلن عدم اشتراك المسلمين فيها مع الكافرين– تشمل كل أمور الحياة، سواء ما يتعلق منها بالمعيشة أو السياسة أو المدنية أو غيرها. وقد أعطى الإسلام بشأنها تعليمات أساسها الحب والوئام والعدل والنظام ورضا الله تعالى، أما الأديان الأخرى فإما أنها تعطي تعليمات جبرية أو تدعو إلى تقليد الآباء في عاداتهم وطقوسهم؛ لذا فاتحاد المسلمين معهم في العبادة محال، سواء تلك العبادة التي تتعلق بالصلاة والدعاء، أو التي تخصّ أمور المعيشة والمدنية والسياسة وأريدَ بها وجه الله؛ ذلك لأن مبادئ الأحكام عند الفريقين متباينة ومتعارضة تماما.

باختصار، إن الإسلام قد أمر أولاً أن يعلن كل مسلم جهارًا ونهارًا أن من المحال أن يتّحد مع الكافرين في العبادة، ثم أوجزَ أسباب هذا الإعلان في قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. فانظر إلى إيجاز قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ثم انظرْ إلى معانيه الواسعة، فكأنما حصر البحر في كوب. الحق أننا لو أردنا بيان هذا المفهوم بكل تفاصيله لألَّفْنا كتابا ضخما؛ فمِن مزايا اللغة العربية أنها تبيّن أحيانًا في كلمة واحدة موضوعا واسعا يستحيل بيانه في اللغات الأخرى في كتاب ضخم. وهذا دليل ساطع على أن العربية أُمُّ الألسنة.

الخلاصة أن الله تعالى قد علّم المسلمين في سورة "الكافرون" أن عليهم أن يتذكروا دائمًا أنهم أكمل شرعًا، وأمثلُ عبادة، وأفضلُ معاشرةً وسلوكًا، وأروع حُكمًا ونظامًا وأسمى هدفًا من أتباع الأديان الأخرى؛ لذا فمن واجبهم أن يتصدّوا للكافرين في كل مناسبة ويثبتوا فضل الإسلام، فلا يتأثروا من الكفر ولا يرتعبوا منه بأي شكل أبدا، لأنهم إذا فعلوا ذلك هلك العالم كله، ولم يتيسر لهم نظام كامل. فانفصال المسلمين عن غيرهم في أمر دينهم ليس راجعًا إلى العناد أو المكابرة، إنما سببه أن فيه خير الإنسانية وازدهارها. أما الخصوم فإنما يرفضون هذا النظام المبارك بسبب عنادهم وعدم اكتراثهم لرقي العالم وازدهاره.